

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الكهف

دكتور
محمد شفيق طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الخامس عشر

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف





مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فقد كان من فضل الله - عز وجل - على ، أن أعارتني جامعة الأزهر إلى قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة -

وقد امتدت هذه الإعارة لمدة أربع سنوات ، من سنة ١٤٠٠ هـ إلى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٠ - ١٩٨٤ م .

وقد وفقني الله - تعالى - خلال هذه المدة ، أن أكتب - وأنا في الجوار الطيب - تفسيراً محرراً ونافعاً - إن شاء الله - لسور : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والزلزل ، والإسراء ...

وهاذا - وأنا في الأشهر الأخيرة من الإعارة - أنهى من كتابة تفسير سورة الكهف .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده ، وأن يعينني على خدمة كتابه الكريم ، وعلى السير في تفسيره حتى النهاية ، وأن يزيل من طريقي كل عقبة تمنعني من ذلك -

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة - مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ .

١٩ من أبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سعيد طنطاوي

مفتي جمهورية مصر العربية

تمهيد

سورة الكهف هي السورة الثامنة عشرة في ترتيب سور المصحف ، فقد سبقها في الترتيب سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ... الخ .
أما ترتيبها في النزول ، فهي السورة الثامنة والعشرون ، فقد ذكر قبلها صاحب الانقان سبعا وستين سورة ، كما ذكر أن نزولها كان بعد سورة الفاشية (١) .

وما ذكره صاحب الانقان يترجح لدينا ، أن سورة الكهف من أواخر السور المكية التي نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل الهجرة ، إذ من المعروف عند العلماء أن السور المكية زهاء ثنتين وثمانين سورة .
قال الآلوسی : سورة الكهف ، ويقال لها سورة أصحاب الكهف ... وهي مكية كلها في المشهور ، وإختاره الداني ... وعددها بعضهم من السور التي نزلت جملة واحدة .
وقيل مكية إلا قوله - تعالى - : واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ... الآية .

وقيل هي مكية إلا أولها إلى قوله - تعالى - : جرزا ، وقيل : مكية إلا قوله - تعالى - : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ... إلى آخر السورة .

وهي مائة وإحدى عشرة آية عند البصريين ، ومائة وعشرة آيات عند الكوفيين ... (٢) .

والذي تظمن إليه النفس أن سورة الكهف كلها مكية ، وقد ذكر ذلك دون أن يستثنى منها شيئا الإمام ابن كثير ، والزمخشري ، وأبو حيان ، وغيرهم ،

(١) الانقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ للسيوطي .

(٢) تفسير الآلوسی ج ١٥ ص ١٩٩ .

وفضلاً عن ذلك فالذين قالوا بأن فيها آيات مدنية ، لم يأتوا بما يدل على صحة قولهم ، كما سيقين لنا عند تفسير الآيات التي قيل بأنها مدنية .

٢ - وقد صدر الامام ابن كثير تفسيره لهذه السورة ، يذكر الأحاديث التي وردت في فضلها فقال مالم يخصصه : ذكر ماورد في فضلها ، والعشر الآيات من أولها وآخرها ، وأنها عصمة من الدجال .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : من حفظ عشر آيات من سورة الكهف ، عصم من الدجال .

وفي رواية عن أبي الدرداء ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : من قرأ للعشر الاواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال .

وأخرج الحاكم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة ، أضاء له النور ما بينه وبين الجمعتين (١) .

٣ - عرض لإجمالي سورة الكهف :

(١) عندما نقرأ سورة الكهف ، نراها في مطلعها تفتتح بالثناء على الله - تعالى - وبالتنويه بشأن النبي - صلى الله عليه وسلم - وبالقراآن الذي نزل عليه ثم تنذر الذين نسبوا إلى الله - عز وجل - ما لا يليق به ، وتصممهم بأفبح ألوان الكذب ، ثم تنهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن التأسف عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم .

قال - تعالى - : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً فيما لينذر بأما شديداً من لدنه ، ويبدش المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً . ما كثير فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٣٠ طبعة دار الشعب .

ثم سافت السورة بعد ذلك فيما يقرب من عشرين آية قصة أصحاب الكهف، فحكيت أقوالهم عندما التجأوا إلى الكهف، وعندما استقروا فيه واتخذوه مأوى لهم، كما حكيت جانباً من رعاية الله، تعالى، لهم، ورحمته بهم... ثم صورت أحوالهم وهم رقود، وذكرت تساؤلهم فيما بينهم بعد أن بعثهم الله - تعالى - من رقادم الطويل، ولإرسالهم أحدهم إلى المدينة لإحضار بعض الأطعمة لإطلاع الناس عليهم. وتنازعهم في أمرهم، ونهى الله - تعالى - عن الجدال في شأنهم. كما ذكرت المدة متى لبثوها في كهفهم.

قال - تعالى - ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا. قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض. أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي، ولا يشرك في حكمه أحداً.

(ح) ثم أمرت السورة الكريمة النبي - صلى الله عليه وسلم - برعاية الفقراء من أصحابه، ومدحتهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه... كما أمرته بأن يجهر بكلمة الحق، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر، فإن الله - تعالى - قد أعد لكل فريق ما يستحقه من ثواب أو عقاب.

قال - تعالى - وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، إنا أعزنا للظالمين فإنا أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا ننزع أجر من أحسن عملاً.

(د) ثم ضربت السورة الكريمة مثلاً للشاكرين والجاحدين، وصورت بأسلوب بليغ مؤثر تلك المحاورة الرائعة التي دأت بين صاحب الجنة الغنى المفرور، وبين صديقه الفقير المؤمن الشكور، وختمت هذه المحاورة ببيان العاقبة السببة لهذا الجاهل الجاحد.

استمع إلى القرآن وهو يبين ذلك بأسلوبه فيقول، وأحيط بشعره، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً.

(هـ) ثم أتبع السورة هذا المثل للرجلين ، بمثال آخر لزوال الحياة الدنيا وزينتها ، وبينان أحوال الناس يوم القيامة ، وأحوال المجرمين عندما يرون صحائف أعمالهم وقد خلت من كل خير .

قال - تعالى - : وأضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح . وكان الله على كل شيء مقتدرا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا . ويوم نسير الجبال ونرى الأرض بارزة وحشرا ثم فلم يغادر منهم أحدا .

(و) وبعد أن ذكرت السورة الكريمة عرافة قصة آدم وإبليس ، وبينت أن هذا القرآن قد صرف الله فيه للناس من كل مثل ، وحددت وظيفة المرسلين عليهم الصلاة والسلام .

بعد كل ذلك ساق في أكثر من عشرين آية قصة موسى مع الخضر - عليهما السلام - وحكت مادار بينهما من محاورات . أنهت بأن قال الخضر لموسى : وما فعلته عن أمري ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا .

(ز) ثم جاءت بعد قصة موسى والخضر ، عليهما السلام ، قصة ذى القرنين في ست عشرة آية . بين الله ، تعالى ، فيها جانباً من النعم التي أفهم بها على ذى القرنين ، ومن الأعمال العظيمة التي مكنته - سبحانه - من القيام بها .

قال - تعالى - : وحى إذا باخ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا . قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكنى فيه ربى خير فاعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما .

(ح) ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ما أعدّه - سبحانه - للكافرين من سوء العذاب وما أعدّه للمؤمنين من جزيل الثواب ، وبينان مظاهر قدرته ، - عز وجل - التي توجب على كل عاقل أن يخلص له العبادة والطاعة .

قال - تعالى - : قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فخببط أعمالهم فلا يقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدون فيها لا يبغون عنها حولا . قل لو كان البحر مدادا لكتبت السكيات ربى لفقد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ، ولو جئنا بمذلة مددا . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا .

٤ - وبعد : فهذا عرض لإجمالى لأهم الموضوعات التى اشتملت عليها سورة الكهف ، ومن هذا العرص نرى :

(١) أن القصص قد اشتمل على جانب كبير من آياتها ، فى أوائلها نرى قصة أصحاب الكهف ، وبعدها قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب . ثم بعد ذلك جاء طرف من قصة آدم وإبليس ، ثم جاءت قصة موسى والخضر - عليهما السلام - ثم ختمت بقصة ذى القرنين :

وقد وردت هذه القصص فى أكثر من سبعين آية ، من سورة الكهف المستمدة على عشر آيات بعد المائة .

(ب) اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عنه ، وعلى إثبات أن هذا القرآن من عنده - تعالى .

نرى ذلك فى أمثال قوله - تعالى - : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . فيما ليقتدر بأسا شديدا من لدنه ، .

وقوله - تعالى - : قل إنما بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد . وفى غير ذلك من الآيات التى حكمت لنا تلك القصص المتعددة .

(ج) برز في السورة عنصر الموارنة والمفارنة بين حسن عاقبة الاخيار
وسوء عاقبة الاشرار ، ترى ذلك في قصة أصحاب الكهف وفي قصة الرجلين
وفي قصة ذى القرنين . . .

وفي الآيات التي ذكرت الكافرين وسوء مصيرهم ، ثم أعقبت ذلك يذكر
المؤمنين وحسن مصيرهم كما برز فيها عنصر القسامة للرسول صلى الله عليه وسلم -
والنهي عن شأن أعدائه ، فلملك باخع تنسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا
الحديث أسفا ،

كما برز فيها النصير المؤثر لأهـوال يوم القيامة كما في قوله - تعالى - :
« ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرام فلم تغادر منهم أحدا
وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة . . . »

والخلاصة : أن سورة الكهف قد - اقت - بأسلوبها البليغ الذي يغلب عليه
الدعوة الصحيحة ، وإلى السلوك القويم ، وإلى الخلق الكريم ، وإلى التقوى
السليم الذي يهدي إلى الرشـد ، وإلى كل ما يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

التفسير

قال - تعالى - :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١)
فَيَمَّا يُلْنَذَرُ أَسَا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كَثِيرٌ فِيهِ أُبْدَاء (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ
قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً
تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَمَّا كَبُخِمْ تُنْقَسُكَ
عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ، لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ
مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) » .

سورة الكهف هي إحدى السور الخمس ، التي افتتحت بتقرير الحقيقة
الأولى في كل دين ، وهي أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء التام هو الله
رب العالمين .

والسور الأربع الأخرى التي افتتحت بقوله - تعالى - : ، الحمد لله ، هي :
الفاتحة ، والأنعام ، وسبا ، وفاطر .

وقد بينا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أن هذه السور وإن كانت قد
اشتركت في هذا الافتتاح ، إلا أن لكل سورة طريقتهما في بيان الأسباب

التي من شأنها أن تقنع الناس ، بأن المستحق للحمد المطلق هو الله - تعالى - وحده (١) .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجليل الصادر عن إختيار من نعمة أو غيرها .
وأل في الحمد ، للاستفراق . بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، والكافة ألوان الثناء ، هو الله - تعالى - .

ولأنما كان الحمد مقصوراً في الحقيقة على الله - تعالى - ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ؛ إذ هو الخالق لكل شيء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء لإحسانهم ، فهو في الحقيقة حمد لله ، لأنه - سبحانه - هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه .

وقد بين بعض المفسرين الحكمة في إفتتاح بعض السور بلفظ الحمد دون المدح أو الشكر فقال ما ملخصه : « اعلم أن المدح أعم من الحمد ، وأن الحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل ، فقد يمدح الرجل لعقله ، ويمدح اللؤلؤ لحسن شكله .

وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، على ما يصدر منه من الإناعام ، فثبت أن المدح أعم من الحمد .

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر ، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الأنعام ، سواء أكان ذلك الإناعام أصلاً إليك أو إلى غيرك ، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إناعام وصل إليك وحدك ، فثبت أن الحمد أعم من الشكر .

وكان قوله ، الحمد لله ، تهرباً بأن المؤثر في وجود العالم هو الفاعل المختار ، الذي وصلت نعمه إلى جميع خلقهم ، لا إلى بعضهم ... (٢)

(١) راجع تفسيرنا لسورة الانعام ص ٣٩ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي لأولى سورة الأنعام ص ٤ ص ٣ . طبعة المطبعة الشرقية - سنة ١٣٢٤ هـ .

وقوله : « الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا - قيا . . . »
 بيان للأسباب التى توجب على الناس أن يجعلوا حمدهم وعبادتهم لله - تعالى -
 وحده ، إذ الوصف بالموصول ، يشعر بعملية ماى حين الصلة لما قبله .
 والعوج - بكسر العين - أكثر ما يكون إستعمالا فى المعانى ، تقول ، هذا
 كلام لا عوج فيه . أى : لا ميل فيه .

أما العوج - بفتح العين - فأكثر ما يكون إستعمالا فى الأعيان تقول :
 هذا حائط فيه عوج .

وقوله : « قيا ، أى : مستقيما معتدلا لا ميل فيه ولا زيغ وهما - أى :
 عوجا وقيا - حالان من الكتاب ويصح أن يكون قوله « قيا ، منصوبا بفعل
 محذوف أى : جملة قيا .

والمعنى : الحمد الكامل ، والثناء الدائم ، لله - تعالى - وحده . الذى أنزل
 على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن الكريم ، ولم يجعل فيه شيئا من
 العوج أو الاختلاف أو التناقض ، لا فى لفظه ، ولا فى معناه ، وإنما جعله
 فى أسمى درجات الاستقامة والإحكام .

وإنما أمر الله - تعالى - الناس بأن يحمده لإنزال الكتاب على عبده محمد
 - صلى الله عليه وسلم - لأن فى هذا الكتاب من الهدايات ما يخرجهم من
 الظلمات إلى النور ، وما يسهلهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وفى التعبير عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالعيد ، مضافا إلى ضميره
 - تعالى - ، تعظيم وتثريف له - صلى الله عليه وسلم - وإشعار بأنه مهماسمت
 منزلته ، وعلت مكانته فهو عبد الله - تعالى - ، وأن الذين عبدوا أو أشركوا
 مع الله - تعالى - بعض مخلوقاته ، قد ضلوا ضلالا بعيدا .

وتعبير عن القرآن الكريم بالكتاب ، إشارة إلى كماله وشهرته ، أى :
 أنزل - سبحانه - على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - الكتاب الكامل فى

بابه ، المعنى عن التعريف ، الحقيق باختصاص هذا الإسم به ، المعروف بهذا الاسم من بين سائر الكتب .

والمراد به إما جميع القرآن الكريم سواء منه ما نزل وملا وما هو مترقب النزول ، وإما ما نزل منه فقط حتى نزول هذه الآية فيكون من باب التعبير عن البعض بالكل تحقيقاً للنزول للجميع .

وجاء لفظ «عوجا» بصيغة التنكير ، ليشمل الغنى جميع أنواع الميل والعوج ، لاذالةكرة في سياق النفي تعم . أى : لم يجعل له - سبحانه - أى شيء من العوج -

وقوله : «قيما» تأكيد في المعنى لقوله - سبحانه - : «لم يجعل له عوجا» لأنه قد يكون الشيء مستقيما في الظاهر ، إلا أنه لا يخلو عن أعوجاج في حقيقة الأمر ، ولذا جمع - سبحانه - بين نفي العوج ، وإثبات الاستقامة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة ، وفي أحدهما غنى عن الآخر ؟

قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح . وقيل : قيا على سائر الكتب ، مصدقا لها ، شاهدا بصحتها . وقيل : قيا بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من «شرائع»^(١) .

وشبهه بهذه الآية في مدح القرآن الكريم قوله - تعالى - : «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد»^(٢) .

وقوله - سبحانه - «... إن القرآن يهدي للتي هي أقوم ...»^(٣) .

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٩ .

وقوله - عز وجل : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون . قرأنا عرييا غير ذي عوج لعلهم يتقون » (١) .
وقوله - تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٢) .

ثم شرع - سبحانه - في بيان وظيفة القرآن الكريم ، بعد وصفه بالاستقامة والاحكام ، فقال : « لينذر بأسا شديدا من لدنه . . . »
والانذار : الاعلام المقترن بتخويف وتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .

واللام في قوله « لينذر » متعلقة بأنزل ، والبأس : العذاب ، وهو المفعول الثاني للفعل ينذر ، ومفعول الأول محذوف .

والمعنى : أنزل - سبحانه - على عبده الكتاب حالة كونه لم يجعل له عوجا بل جعله مستقيما ، لينذر الذير كفروا عذابا شديدا ، صادرا من عنده - تعالى - :

والتعبير بقوله « من لدنه » يشعر بأنه عذاب ليس له دافع ، لأنه من عند الله تعالى - القاهر فوق عباده .

أما وظيفة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، فقد بيئها - سبحانه - بعد ذلك في قوله : « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجرا حسنا . ما كثر فيه أبدا »

أي : أنزل الله هذا القرآن ، ليخوف به الكافرين من عذابه ، وليبشر به المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات . أن لهم من خالقهم - عز وجل - أجرا حسنا هو الجنة ونعيمها ، « ما كثر فيه أبدا » أي : مقيم فيه إقامة باقية

(١) سورة الزمر الآية ٢٧ ، ٢٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٨٢ .

دائمة لا إنتهاء لها . فالضمير في قوله « فيه » ، يعود إلى الأجر الذي براد به الجنة .

قال - تعالى - : فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنبذر به قوما لدا ، (١) .

ثم خص - سبحانه - بالإنداز فرقة من الكافرين ، نسبوا إلى الله - تعالى - ما هو منزه عنه ، فقال : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم : كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . »

فقوله - سبحانه - هنا : وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . . معطوف على قوله قيل ذلك « لينذر بأسا شديدا من لدنه » ، من باب عطف الخاص على العام لأن الانذار في الآية الأولى يشمل جميع الكافرين ومن بينهم الذين نسبوا إلى الله - تعالى - الولد .

والمراد بهم اليهود والنصارى ، وبعض مشركي العرب : قال - تعالى - وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، (٢) .

وقال - سبحانه - : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » (٣) .

قال الألوسي : وترك - سبحانه - إجراء الموصول على الموصوف هنا ، حيث لم يقل وينذر الكافرين الذين قالوا . . . كما قال في شأن المؤمنين : « ويذكر المؤمنين الذين . . . للإيذان بكفاية ما في حيز الصلة في الكفر على أقرب الوجوه . وإيتار صيغة الماضي في الصلة ، للدلالة ، على تحقيق صدور تلك الكلمة القوية عنهم فيما سبق ، (٤) .

(١) - سورة مريم الآية ٩٧ .

(٢) - سورة النوبة الآية ٣٠ .

(٣) - سورة النحل الآية ٥٧ .

(٤) - تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٢٠٣ .

وقوله - تعالى - : « ما لهم به من علم ولا لا بانهم » ، توبيخ لهم على تفوههم بكلام يدل على إغفالهم في الجمل والمهتان .

أى : ما نسبوه إلى الله - تعالى - من الولد ، ليس لهم بهذه النسبة علم ، وكذلك ليس لا بانهم بهذه النسبة علم ، لأن ذلك مستحيل له - تعالى - ، كما قال - عز وجل - : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون » .

بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخالق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ، (١) .

و « من » ، فى قوله : ما لهم به من علم ، مزبدة لتأكيد النفي ، و « الجملة مستأنفة » ، و « لهم » ، خبر مقدم ، و « من علم » ، مبتدأ مؤخر ، وقوله « ولا بانهم » معطوف على الخبر .

أى : ما لهم بذلك شىء من العلم أصلاً ، وكذلك الحال بالنسبة لا بانهم . فالجملة السكريمة تنفى ما زعموه نفيًا يشملهم ويشمل الذين سبقوهم وقالوا قولهم .

قال السرخسى : فإن قيل : إتخاذ الولد محال فى نفسه ، فكيف قال ما لهم به من علم ؟ فالجواب أن انتفاء العلم بالشىء قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وقد يكون لأنه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ، ونظيره قوله - تعالى - : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به » ، (٢) .

وقوله - تعالى - . « وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا » . ذم شديد لهم على ما نطقوا به من كلام يدل على فرط جهلهم ، وعظم كذبهم . وكبر : فعل مفضل لإنشاء الذم ، فهو من باب نعم وبشر ، وفاعله ضمير

(١) سورة الأنعام الآيتان ١٠٠ ، ١٠٨

(٢) حاشية الجبل على الجلالين ج ٣ ص ٤

مخذوف ، مضمرة بالمشكرة بعدة وهي قوله ، كلمة ، المنصوبة على أنها تمييز .
والمخصوص بالذم مخذوف .

والتقدير : كبرت هي كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة الشنعاء التي
تفوهوا بها . وهي قولهم : اتخذ الله ولدا . فإنهم ما يقولون إلا قولا كاذبا ،
محالا على الله - تعالى - ومخالفا للواقع ؛ ومنافيا للحق والصواب .

وفي هذا التعبير ما فيه من استعظام قبح ما نطقوا به ، حيث وصفه
- سبحانه - بأنه مجرد كلام لا كنه السنتهم ، ولا دليل عليه سوى كذبهم
وافترائهم .

قال صاحب الكشف : قوله ، كبرت كلمة ، قرئ - كبرت كلمة بالرفع
على الفاعلية ، وبالنصب على التمييز . والنصب أقوى وأبلغ ، وفيه معنى التعجب
كأنه قيل : ما أكبرها كلمة .

وقوله ، تخرج من أفواههم ، صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على
النطق به ، وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان في قلوب
الناس ويحدثون أنفسهم به من المنكرات ، لا ينموا ليكون أن يتفوهوا به ،
وبطلقوا ؛ السنتهم ، بل يكظمون عليه تباعدا من إظهاره ؛ فكيف بهذا
المنكر ؟

فإن قلت : لإلام يرجع الضمير في ، كبرت ، ؟ قلت : إلى قولهم اتخذ الله
ولدا . وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها ، (١) .

وشبه هذه الآية في استعظام ما نطقوا به من قبح قوله - تعالى - : وقالوا
اتخذ الله ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتتشق
الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ
ولدا . (٢) .

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٤٧٢

(٢) - سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٢

ثم - سبحانه - ما يسلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب إعراض المشركين عن دعوة الحق ، فقال - تعالى - : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا »

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم - أولا - أن لفظة « لعل » تكون للترجي في المحبوب ، وللإشفاق في المخذور . واستظهر أبو حيان أن « لعل » هنا للإشفاق عليه - صلى الله عليه وسلم - أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم .

وقال بعضهم أن « لعل » هنا للنهي . أى لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم .. وهو الأظهر ، لكثرة ورود النهي صريحا عن ذلك ، قال - تعالى - « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .. » (١) .

وقوله « باخع » من البخع ، وأصله أن تبلغ بالذبح الذخاع - بكسر الباء - وهو عرق يجري في الرقبة . وذلك أقصى حد الذبح . يقال : بخع فلان نفسه بخعا وبخوعا .

أى : قتلها من شدة الغيظ والحزن ، وقوله : « على آثارهم » أى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك وقوله « أسفا » أى : هما وغما مع المبالغة في ذلك ، وهو مفعول لأجله .

والمعنى : لانهلك نفسك - أيها الرسول الكريم - هما وغما ، بسبب عدم إيمان هؤلاء المشركين . وبسبب إعراضهم عن دعوتك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، و « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » .

قال الزمخشري : شبهه - سبحانه - وإيما حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به ، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم ، برجل فارقتة أحبته وأعزته ،

فهو يتساقط حشرات على آذانهم ؛ ويجمع نفسه وجدا عليهم ، وتلفها على فراقهم ، (١) .

وقوله - تعالى - : وإنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا . وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا . تعليل للنهي المقصود من الترجى في قوله : فلعلمك باخع . ، وزيادة في تسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من غم وحزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم

أى : إنا بمقتضى حكمتنا - أيها الرسول الكريم - قد جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات وأنهار وبنيان . زينة لها ولأهلها . لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، أى : أى لمختبرهم عن طريق ما جعلنا زينة للأرض ولأهلها : أيهم أتبع لأمرنا ونهيها ، وأسرع في الاستجابة لطاعتنا ، وأبعد عن الاغترار بشهواتها ومتعها - وإنا - أيضا - بمقتضى حكمتنا ، لجاعلون ما عليها من هذه الزينة في الوقت الذي نريده لنهاية هذه الدنيا ، صعيدا ، أى : ترابا وجرزا ، أى : لا نبات فيه ، يقال أرض جرز ، أى : لا تنبت : أو كان نبات ثم زال .

ويقال : جرزت الأرض : إذا ذهب نباتها بسبب القحط ، أو الجراد الذي أتى على نباتها قال تعالى - : أر لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زراعا نأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ، (٢)

والمقصود من الآيتين الزيادة في تثبيت قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي تسليته عما لحقه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

فسكانه - سبحانه - يقول له . لمض أيها الرسول الكريم في تبليغ ما أوحيناك إليك ، ولا تبال بإصرار الكافرين على كفرهم . ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن حكمتنا قد اقتضت أن نجعل ما على الأرض من كل ما يصلح أن يكون زينة لها ولهم ؛ موضع لإبتلاء واختبار للناس ، ليميز الحسن من

المسيح ، كما اقتضت حكممتنا - أبضاً - أن نصير ما على هذه الأرض عند انقضاء عمر الدنيا تراباً قاحلاً لا نبات فيه ، وبمقرب ذلك الجزاء على الأعمال ، وسننتقم لك من أعدائك ، فاصبر صبراً جميلاً . إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً .

وفي التعبير عما على الأرض بالزينة ، إشارة إلى أن ما عليها مهما حسن شكله ، وعظم ثمنه . فهو إلى زوال ، شأنه في ذلك شأن ما يتزين به الرجال والنساء من ملابس وغيرها ، يتزينون بها لوفت ما ثم يتركونها وتتركم . وقوله د ليلوهم أنهم أحسن عملاً ، تعليل لما اقتضته حكمته من جعل ما على الأرض زينة لها .

أى : فعلنا ذلك لنتخير الناس على السنة رسلنا ، أنهم أحسن عملاً ، بحيث يكون عمله مطابقاً لما جئت به - أيها الرسول الكريم - ، وخالصاً لوجهنا ، ومبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة .

قال تعالى : تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً

وفي الحديث الشريف : إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فمناظر كيف تعملون ، فانقوا الدنيا ، وانقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء . .

وقوله - سبحانه - : ولما لجأ علون ما عليها صعيداً جرزا ، زيادة في التزهيد في زينتها ، حيث إن مصيرها إلى الزوال ، وحض على التزود من العمل الصالح الذي يزدى بالإنسان إلى السعادة الباقية الدائمة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد فرت أن الثناء الكامل إنما هو لله - عز وجل - ، وأن الكتاب الذي أنزله على عبده ونبيه - صلى الله عليه وسلم - لا عوج فيه ولا ميل ، وأن وظيفة هذا الكتاب إنذار الكافرين بالعقاب ، وتبشير المؤمنين بالثواب ، كما أن من وظيفته تثبيت قلبه - صلى الله عليه وسلم -

وتسلطته عما أصابه من أعدائه ، ببيان أن الله - تعالى - قد جعل هذه الدنيا بما فيها من زينة ، دار إختبار وإمتحان لمتبين المحسن من المفسد ، وليجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك قصة أصحاب الكهف ، وبين أن قصتهم ليست عجيبة بالنسبة لقدرته - عز وجل - فقد أوجد - سبحانه - ما هو أعجب وأعظم من ذلك ، فقال - تعالى - :

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لَنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) . »

قال الإمام الرازي : اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الإمتحان ، فقال - تعالى - : أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ لا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب فإن كان قادرا على خلق السموات والأرض ، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن ، ثم يحلهم بعد ذلك صعيدا جردا خالية من الكل ، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم ... ، (١)

وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة ، بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست شيئا عجبا بالنسبة لقدرة الله - تعالى - .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات

ملخصها : أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى
أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد - صلى الله عليه وسلم - ،
وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول . وعندما
من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

نخرجوا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ووصفوا لهم أمره .

فقالوا لها سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن ، فهو نبي مرسل
وإن لم يفعل فالرجل متقول .

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماذا كان من خبرهم . فإنهم قد كان
من خبرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف المشارق والمغارب ماذا كان من خبره ؟
وسلوه عن الروح ، ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش . فقالا : يا معشر قريش ،
قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نساله
عن أمور .

ثم جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا يا محمد أخبرنا ،
ثم سألوهم عما قالتهم يهود .

فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأجيبكم غدا بما سألتهم عنه
ولم يستثن - : أي . ولم يقل إن شاء الله - فأنصروا عنه .

ومكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمس عشرة ليلة . لا يحدث الله
إليه في ذلك رحيا ، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة
وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشرة قد أصبحنا فيها ، لا يخبرنا بشيء
عما سأله عنه . وحتى أحزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكث الوحى عنه ،

وشق عليه ما تكلم به أهل مكة ، ثم جاء جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معانيه لإياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله - تعالى - : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، (١) .

والخطاب في قوله - تعالى - ، أم حسبت . . ، للرسول - صلى الله عليه وسلم - ويدخل فيه غيره من المكلفين .

و د أم ، في هذه الآية هي المنقطعة ، وتفسر عند الجمهور بمعنى بل والهمزة أى : بل أحسبت ، وعند بعض العلماء تفسر بمعنى بل ، فتكون للانتقال من كلام إلى آخر . أى : بل حسبت . ويرى بعضهم أنها هنا بمعنى الهمزة التي للاستفهام الإنكارى أى : أحسبت أن أصحاب الكهف والرقم .

والكهف : هو النقب المتسع في الجبل ، فإن لم يكن فيه سعة فهو غار ، وجمعه كهوف .

والمراد به هنا : ذلك الكهف الذي اتخذ هؤلاء الفتية مستقرا لهم .

وأما الرقم فقد ذكروا في المراد به أقوالا متعددة منها : أنه اسم كلهم ، ومنها أنه اسم الجبل أو الوادي الذي كان فيه الكهف ، ومنها أنه اسم القرية التي خرج منها هؤلاء الفتية .

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن المراد به اللوح الذي كتبت فيه أسماءهم وأنسائهم وقصصهم ، فيكون الرقم بمعنى المرقوم - فهو فعيل بمعنى مفعول - وماخوذ من رقت الكتاب إذا كتبت .

ومنه قوله - تعالى - : كلا إن كتاب الأبرار في عليين . وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم ، (٢) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) سورة المطففين الآيات ١٨ - ٢٠ .

أى مكتوب .

قال بعض العلماء : والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم : طائفة واحدة
أضيفت إلى شيتين :

أحدهما معطوف على الآخر ، خلافاً لمن قال أن أصحاب الكهف طائفة
وأصحاب الرقيم طائفة أخرى وأن الله قصص على نبيه في هذه السورة الكريمة
قصة أصحاب الكهف ، ولم يذكر له شيئاً عن أصحاب الرقيم . وخلافاً لمن
زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فحُددت عليهم
باب الكهف فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفجرت ، وهم البار بوالديه .
والعفيف ، والمستأجر . وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح ، إلا أن تفسير
الآية بأنهم هم المراد بعيد كما ترى ، (١) .

والمعنى : أظننت - أيها الرسول الكريم - أن ما قصصناه عليك من شأن
هؤلاء الفتية ، كان من بين آياتنا الدالة على قدرتنا شيئاً عجيباً ؟ لا لا نظن ذلك
فإن قدرتنا لا يعجزها شيء .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه عندما حطوا رحالهم في الكهف فقال : إذ
أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة . وهي لنا من
أمرنا رشداً .

و . إذ ، هنا ظرف منصوب بفعل تقديره ، : اذكر .

و . أوى ، فعل ماضٍ - من باب ضرب - تقول : أوى فلان إلى مسكنه
يأوى إذا نزل به بنفسه . واستقر فيه .

و ، الفتية : جمع قلة لغنى . وهو وصف للإنسان عندما يكون في
مطلع شبابه .

وقوله : د وهيء لنا من أمرنا : من التهيئة بمعنى : تبسير الأمر وتفريبه وتسهيله حتى لا يخاطله عسر أو مشقة .

والمراد بالأمر هنا : ما كانوا عليه من تركهم لأهل بيهم ومساكنهم ، ومن مفارقتهم لما كان عليه أعداؤهم من عقائد فاسدة .

والرشد : الاهتداء إلى الطريق المستقيم مع البقاء عليه . وهو ضد الغي . يقال : رشد فلان يرشد رشدًا ورشادًا ، أصاب الحق .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس ليعتبروا ، وقت أن خرج هؤلاء الفتية من مساكنهم ، تاركين كل شيء خلفهم من أجل سلامة عقيدتهم فالتجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى لهم ، وتضرعوا إلى خالقهم قائلين : ياربنا آتنا من لدنك رحمة ، تهدي بها قلوبنا ، وتصلح بها شأننا ، وترد بها الفتن عنا ، كما نسألك ياربنا أن تهين لنا من أمرنا الذي نحن عليه ، وهو : فرارنا بديننا ، وثباتنا على إيماننا ، ما يزيدنا سدادًا وتوفيقًا لطاعتك .

وقال - سبحانه - : د إذا أوى الفتية . . . ، بالإظهار - مع أنه قد سبق الحديث عنهم بأنهم أصحاب الكهف لتحقيق ما كانوا عليه من فتوة ، وللتنصيص على وصفهم الدال على قلتهم ، وعلى أنهم شباب في مقتبل أعمارهم ، ومع ذلك ضحوا بكل شيء في سبيل عقيدتهم .

والتعبير بالفعل ، أوى ، يشعر بأنهم مجرد عثورهم على الكهف . ألقوا رحالهم فيه واستقروا به استقرار من عثر على ضالته ، وآثروه على مساكنهم المربحة ، لأنه وإراهم عن أعين القوم الظالمين .

والتعبير بالغاء في قوله - سبحانه - د فقالوا ياربنا آتنا من لدنك رحمة . . . ، يدل على أنهم مجرد استقراهم في الكهف ابتهلوا إلى الله - تعالى - بهذا الدعاء الجامع لكل خير :

والتنوين في قوله : د رحمة : : للتوبيخ والتنويع . أى : آتنا ياربنا

ياربنا من عندك وحدك لا من غيرك . رحمة عظيمة شاملة لجميع أحوالنا
وشئوننا . فهي تشمل الأمان في المنزل ، والسمعة في الرزق ؛ والمغفرة
للذنوب .

قال القرطبي ما ملخصه : هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة
والأهل والأوطان .. خوف الفتنة ، ورجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة
الكافرين .. (١) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث هؤلاء الفتية بعد أن لجأوا إلى الكهف ،
وبعد أن دعوا الله بهذا الدعاء الشامل لكل خير . فقال : « فضربنا على آذانهم
في الكهف سنين عددا ، » .

وأصل الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء طاهر جسم ، بظاهر
جسم آخر بشدة .

يقال : ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها بشدة ، وتفرعت عن هذا
المعنى معان أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .

والمراد بالضرب هنا النوم الطويل الذي غشاهم الله - تعالى - به فصاروا
لا يحسون شيئاً مما حولهم ، ومفعول ضربنا محذوف .

والمعنى : بعد أن استقر هؤلاء الفتية في الكهف « وقضروا إلينا بهذا
الدعاء العظيم ، ضربنا على آذانهم وهم في الكهف حجاباً ثقيلاً مانعاً من
السماع ، نصاروا لا يسمعون شيئاً يوقظهم ، واستمروا في نومهم العميق هذا
« سنين ، ذات عدد كبير ، بينها - سبحانه - بعد ذلك في قوله : « ولبنوا في
كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسماً ، » .

وخص - سبحانه - الأذان بالضرب ، مع أن مشاعرهم كلها كانت محجوبة
عن اليقظة ، لأن الأذان هو الطريق الأول للتيقظ . ولأنه لا يشغل النوم إلا
عندما تعطل وظيفة السمع .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٦٠ .

وقد ورد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما علم أن رجلا لا يستيقظ مبكرا أن قال في شأنه : « ذلك رجل قد بال الشيطان في أذنه . أى : فمنها من التكبر واليقظة قبل طلوع الشمس .

والتعبير بالضرب - كما سبق أن أشرنا - للدلالة على قوة المباشرة . وشدة اللصوق واللزوم ، ومنه قوله تعالى - « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، أى : التصقت بهم التصاقا لا يفكك لهم منه ، ولا مهرب لهم عنه .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لهم بعد هذا النوم الطويل فقال : ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ، .

وأصل البعث فى اللغة : إضاءة الشئ . من محله وتحريكه بعد سكون . ومنه قولهم : بعث فلان الناقة - إذا أثارها من مبركها للسير ، ويستعمل بمعنى الإيقاظ وهو المقصود هنا من قوله « بعثناهم ، أى : أيقظناهم بعد رقادهم الطويل .

وقوله « لنعلم أى الحزبين ... » بيان للحكمة التى من أجلها أيقظهم الله من نومهم .

وكثير من المفسرين على أن الحزبين أحدهما : أصحاب الكهف والثانى : أهل المدينة الذين أيقظ الله أهل الكهف من رقادهم فى عهدهم ، وكان عندهم معرفة بشأنهم .

وقيل : هما حزبان من أهل المدينة الذين بعث هؤلاء الفتية فى زمانهم ، إلا أن أهل هذه المدينة كان منهم حزب مؤمن وآخر كافر .

وقيل : هما حزبان من المؤمنين كانوا موجودين فى زمن بعث هؤلاء الفتية ، وهذان الحزبان اختلفوا فيما بينهم فى المدة التى مكثها هؤلاء الفتية رقوداً .

والذى تطمئن إليه النفس أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف ، لأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك - وكذلك بعثناهم - أى الفتية - ليتأملوا

بينهم ، قال قاتل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم

قال الآلوسی : ثم بعثناهم ، أى : أبقظناهم وأنزلناهم من نومهم . لنعلم أى الحزبين ، أى : منهم ، وهم القائلون لبثنا يوما أو بعض يوم ، والقائلون : ربكم أعلم بما لبثتم .

وقبل : أحد الحزبين الغتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم ، والثاني أهل المدينة الذين بعث الغتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم والظاهر الأول لأن اللام للعهد ، ولا عهد لغير من سمعت ، (١) .

والمراد بالعلم فى قوله : لنعلم . . . ، إظهار المعلوم ، أى ثم بعثناهم لنعلم ذلك علما يظهر الحقيقة التى لا حقيقة سواها للناس .

ويجوز أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، أى : ثم بعثناهم لتمييز أى الحزبين أحصى لما لبثوا أبدا .

فهو من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، إذ العلم سبب للتمييز .

ولفظ : أحصى ، يرى صاحب الكشف ومن تابعه أنه فعل ماض ، ولفظ : أمدا ، مفعوله ، و : ما ، فى قوله : لما لبثوا ، مصدرية ، فيكون المعنى ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين اضبط أمدا - أى مدة - لبثهم فى السكوت .

قال صاحب الكشف : ودأحصى ، فعل ماض ، أى : أيهم اضبط دأمدا ، لأوقات لبثهم .

فإن قلت : فما نقول فيمن جعله من أفعال التفضيل ؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بشاءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به ؟ (٢)

(١) تفسير الآلوسی ج ١٥ ص ٢١٢

(٢) راجع الكشف ج ٢ ص ٤٧٤

وبعضهم يرى أن لفظ «أحصى» صيغة تفضيل، وأن قوله «دأمداء منصوب» على أنه تمييز وفي إظهار هذه الحقيقة للناس، وهي أن الله - تعالى - قد ضرب النوم على آذان هؤلاء الفتية ثلاثمائة سنين وإزدادوا نساء، ثم بعثهم بعد ذلك دون أن يتغير حالهم، أقول: في إظهار هذه الحقيقة دليل واضح على قدرة الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له، وعلى أن البعث بعد الموت حق لا ريب فيه.

وبذلك تكون هذه الآيات قد ساقته لناقصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم جاءت آيات بعد ذلك لتحكي لناقصهم على سبيل التفصيل والبسط، وهذه الآيات هي قوله - تعالى - :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَنَظْمُ الْأَظْلَمِ يَمُنُّ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُبَدِّلُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا (١٦) » .

أى : « نحن ، وحدها يا محمد ، نقص عليك وعلى أمتك خبر هؤلاء الفتية قصصا لحته وسداه الحق والصدق ، لأنه قصص من ربك الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وقوله : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » ، كلام مستأنف جواب عن سؤال تقديره ما قصتهم وما شأنهم بالتفصيل ؟

أى : إنهم فتية أخلصوا العبادة لخالقهم ، واسلوا وجوههم لبارئهم ،

وآمنوا برؤيتهم - سبحانه - إيماناً عميقاً ثابتاً ، فزادهم الله ببركته هذا الإخلاص والثبات على الحق ، هداية على هـ - إيتهم ، وإيماناً على إيمانهم .

وقوله - سبحانه - : نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إيماناً إلى أن قصة هؤلاء الفتية كانت معروفة لبعض الناس ، إلا أن معرفتهم بها كانت مشوبة بالخرافات والأباطيل .

قال ابن كثير : ما ملخصه : ذكر الله - تعالى - أنهم كانوا فتية - أي شباباً - ، وهم أقبل للحق من الشيوخ ، الذين عتوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله شباباً ، وأما المشايخ من قريش ، فعاتتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل .

واستدل غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره بقوله : وزدناهم هدى ، إلى أن الإيمان يزيد وينقص ... ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من مظاهر هدايته لهم فقال : « وربطنا قلوبهم إذ قاموا ،

وأصل الربط : الشد ، يقال ، ربطت الدابة ، أي : شدتها برباط ، والمراد به هنا : ما غرسه الله في قلوبهم من قوة ، وثبات على الحق ، وصبر على فراق أهليهم : ومنته قولهم : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا يفزع عند الشدائد والكروب .

والمراد بقيامهم : عقدهم العزم على مفارقة ما عليه قومهم من باطل ، وتصميمهم على ذلك تصميماً لا تزحزحه الخطوب مهما كانت جسيمة .

ويصح أن يكون المراد بقيامهم : وقوفهم في وجه ملكهم الجبار بشبات وقوة ، دون أن يبالوا به عندما أمرهم بعبادة ما يعبد قومهم ، وإعلانهم دين التوحيد ، ونبتهم لكل ما سواه من شرك وضلال .

قال القرطبي مالمخصه : قوله - تعالى - ، إذ قاموا ، يحتمل ثلاثة ممان . أحدها : أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر ، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا ما دعاهم إليه .

والمعنى الثاني فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة فخرجوا واجتمعوا وراءها من غير ميعاد ، وتعاهدوا على عبادة الله وحده .

والمعنى الثالث : أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله - تعالى - ومناجاة الناس ، كما تنزل : قام فلام إلى أمر كذا ، إذا عزم عليه بغاية الجدة (١) .

وعلى أبة حال فالجملة الكريمة تفيد أن هؤلاء الغفية كانت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذي اهتدت إليه ، معتزة بالإيمان الذي أشربته ، مستبشرة بالإخاء الذي جمع بينها على غير ميعاد ، وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول : الأرواح جنود مجنده ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن استقر الإيمان في نفوسهم فقال : وقالوا ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها

أي : أعلنوا برامتهم من كل خضوع لغير الله - عز وجل - حين قاموا في وجه أعدائهم ، وقالوا بكل شجاعة وجرأة : ربنا - سبحانه - هو رب السموات والأرض ، وهو خالقهما وخالق كل شيء ، ولن نعبد سواه أي معبود آخر .

ونفوا عبادتهم لغيره - سبحانه - يحرف - ، ان ، الإشعار بتصميمهم على ذلك في كل زمان وفي كل مكان ، إذ النفي بـلن أبلغ من النفي بغيرها .

قال الآلومي : وقد يقال ؛ إنهم أشاروا بالجملة الأولى - وهي : ربنا رب

السموات والأرض - إلى توحيد الربوبية ، وأشاروا بالجملة الثانية - لن ندعو من دونه إلها - إلى توحيد الألوهية ، وهما أمران متغايران ، وعبدوا لاوثان لا يقولون بهذا ، ويقولون بالأول : . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، وحكى - سبحانه - عنهم أنهم يقولون : . ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وصرح أنهم كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ،^(١) .

وقرله - سبحانه - : ولقد قلنا إذا شططنا ، تأكيد لبرائتهم من كل عبادة لغير الله - تعالى - .

والشطط : مصدر معناه تجاوزة الحد في كل شيء ، ومنه : أشط الان في السوم ، إذا جاوز الحد ، وأشط في الحكيم إذا جاوز حدود العدل : وهو وصفة لموصوف محذوف وفي الكلام قسم مقدر ، واللام في ولقد ، واقعه في جوابه ، و : إذا ، حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر .

أى : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها . ولو فرض أننا دعونا وعبدنا من دونه إلها آخر ، والله لتسكونن في هذه الحالة قد قلنا إذا فولا شططنا ، أى : بعيدا بعدا واضحا عن دائرة الحق والصواب .

فآية الكريمة تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية ، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله - تعالى - قلبه ، وقواه على تحمل الشدائد ، كما تدل أن من أشرك مع الله - تعالى - إلها آخر ، يكون بسبب هذا الإشراك ، قد جاء بأمر شطط بعيد كل البعد عن الحق والصواب وصدق الله إذ يقول : . ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ،^(٢) .

ثم حكى - سبحانه - عن هؤلاء الفتية أنهم لم يكتبوا بإعلان إيمانهم

(١) تفسير آلوسى ج ١٥ ص ٣١٩ .

(٢) سورة الحج الآية ٣١ .

الصادق ، بل أضافوا إلى ذلك إستفكارهم لما عليه قومهم من شرك فقال :
 « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهاة لولا يأتون عليهم بسلطان بين . . . » .
 و « هؤلاء » مبتدأ ، و « قومنا » عطف بيان ، و جملة « اتخذوا » من دونه
 آلهاة ، هي الخبر .

و « لولا » للتخصيص ، و هو الطالب بشدة . و المقصود بالتخصيص هنا
 الإنكار و التعجيز ، إذ من المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل
 على صحة ما هم عليه من شرك .

و المراد بالسلطان البين : الحجة الواضحة .

أى : أن أولئك الفتية بعد أن اجتمعوا ، و تعاقدوا على عبادة الله تعالى -
 وحده ، و نبذ الشرك و الشركاء . قالوا على سبيل الإنكار و الاحتقار لما عليه
 قومهم : هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه و الجهل ، أنهم اتخذوا مع الله تعالى -
 أصناما يشركونها معه فى العبادة ، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد
 دعواهم بأن هذه الأصنام تصلح آلهاة لاشك أنهم لن يستطيعوا ذلك .

قال صاحب الكشف و قوله : « لولا يأتون عليهم بسلطان بين » تبكيت
 لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال . و هو دليل على فساد
 التقليد ، وأنه لا بد فى الدين من حجة حتى يصح و يثبت ، (١) .

و شبه هذه الآية فى تعجيز المشركين و تجهيلهم قوله تعالى : قل هل عندكم
 من علم فتخرجوه لنا ، إن ننبهون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ، (٢) .

و قوله - سبحانه - : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرؤى ماذا
 خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات ، أتتوفى بكتاب من قبل هذا
 أو أنارة من علم إن كنتم صادقين ، (٣) :

(١) تفسير الكشف ج ٢ من ٤٧٤ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ٤ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على تكذيبهم لقومهم ،
وصرفهم لإيادهم بالظلم فقال : « فن أظلم ممن افترى على الله كذباً » ،

أى : لا أحد أشد ظلاماً من قوم افترى على الله - تعالى - المكذب ،
حيث زعموا أن له شريكاً فى العبادة والطاعة ، مع أنه - جل وعلا - منزّه عن
الشريك والشركاء : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما تناجوا به فيما بينهم ، بعد أن وضح موقفهم
وضوحاً صريحاً حاسماً ، وبعد أن أعلنوا كلمة التوحيد بصدق وقوة ... فقال
- تعالى - : « وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ، فأووا إلى الكهف ينشر
لكم ربكم من رحمته ويهوى لكم من أمركم مرفقاً » .

و « إذ » يبدو أنها هنا للتعليل . والاعتزال : تجنب الشيء سواء أكار
هذا التجنب بالبدن أم بالقلب . و « ما » فى قوله « وما يعبدون إلا الله » اسم
موصول فى محل نصب معطوف على الضمير فى قوله « اعتزلتموهم » وقوله :
« إلا الله » استثناء متصل ، بناء على أن القوم كانوا يعبدون الله - تعالى -
ويشركون معه فى العبادة الأصنام . و « من » قالوا لأنها بمعنى البدلية .

وقوله : « مرفقاً » من الإرتفاق بمعنى الانتقاع . وقرأ نافع وابن عامر
مرفقاً - بفتح الميم وكسر الفاء - .

والمعنى : أن هؤلاء الفتية بعد أن أعلنوا كلمة التوحيد ، وعقدوا العزم
على مفارقة قومهم المشركين تناجوا فيما بينهم وقالوا : ولاجل ما أنتم مقدمون
عليه من اعتزالكم لقومكم الكفار ، واعتزالكم الذى يعبدونه من دون الله ،
لأجل ذلك . فاجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى ومستقراً لكم ، ينشر لكم
ربكم الكثير من الخير بفضله ورحمته ، ويهوى لكم بدلاً من أمركم الصعب .
أمراً آخر فيه اليسر والنفع .

وفى التعبير بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - « ينشر لكم ربكم من »

رحمته ... ، دلالة واضحة على صدق إيمانهم وحسن ظنهم الذي لا حدود له ،
بربهم - عز وجل - فهم عند ما فارقوا أهلهم وأموالهم وزينة الحياة ، وقرروا
اللاجوء إلى المكهف الضيق الخشن المظلم ... لم يياسوا من رحمة الله ، بل
أيقنوا أن الله - تعالى - سيرزقهم فيه الخير الوفير ، ويسر لهم ما يبتغون به ،
بهركة إخلاصهم وصدق إيمانهم

وهكذا الإيمان الصادق ، يجعل صاحبه يفضل المكان الخالي من زينة
الحياة ، من أجل سلامة عقيدته ، على المكان المليء باللين والرخاء الذي يحس
فيه بالخوف على عقيدته .

فالآية المكرمة تدل على أن لعزال الكفر والكافرين من أجل حماية
الدين ، يؤدي إلى الظفر برحمة الله وفضله وعظاته العميم وصدق الله إذ يقول
في شأن إبراهيم - عليه السلام - ، واعتز لكم وما تدعون من دون الله وادعو
ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا ، فلما اعتز لهم وما يعبدون من دون
الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، وهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا
لهم لسان صدق عليا ، (١٥) .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال هؤلاء الفتية بعد أن
استقروا في الكهف . وبعد أن ألقى الله - تعالى - عليهم بالانوم الطويل
فتقول :

« وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا
غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا يَتَّبِعْ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا (١٧)
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ،

وكلبهم باسطاً ذراعيه بالوَصِيد ، لو اطلعت عليهم لوأيت منهم فراراً ،
ولمِلْتُ منهم رُعْباً (١٨) .

قال الألوسی : قوله : « وترى الشمس ... » بيان لحاطم بعد ما أووا إلى
الكهف ... والخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو لكل أحد ممن
يصلح ، وهو المبالغة في الظهور ، وإس المراد الإخبار بوقوع الرقبة ، بل
المراد الاحبار بكون الكهف لو رأيت تری الشمس إذا طلعت تزاور عن
كفهم ذات اليمين ... ، (١) .

وقوله ، تزاور ، من الزور بمعنى الميل . ومنه قولهم : زار فلان صديقه ،
أى : مال إليه : ومنه شهادة الزور ، لأنها ميل عن الحق إلى الباطل . ويقال :
فلان أزور ، إذا كان مائل الصدر ، ويقال : تزاور فلان عن الشيء ، إذا
لمحرف عنه .

وفي هذا المفظ ثلاث قراءات سبعية : فقد قرأ ابن عامر : تزور ، بزنة
نحمر . وقرأ الكوفيون - عاصم وحمزة والكسائي - « تزاور » . بفتح الزاى -
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « تزاور » بتشديد الزاى - . وأصله تزاور
فحذفت إحدى التامين تخفيفاً .

ومعنى : « تقررهم » ، قطعهم وتجاوزهم وتقر بهم . من القرض بمعنى
القطع والصرم ، يقال : قرض الماكان ، أى : عدل عنه وتركه .

والمعنى : أنك - أيها المخاطب - لو رأيت أهل الكهف ، لرأيتهم على هذه
الصورة ، وهى أن الشمس إذا طلعت من مشرقها ، مالت عن كفهم جهة
اليمين ، وإذا غربت ، تراها عند غروبها ، تميل عنهم كذلك ، فهى فى الحالتين
لا تفصل إليهم ، حماية من الله - تعالى - لهم ، حتى لا تؤذيهم بحرّها ، بأن تغير
ألوانهم ، وتبلى ثيابهم .

وقوله : « وهم في فجوة منه ، جملة حالية . أى : والحال أنهم في مكان متسع من الكهف وهو وسطه . والفجوة : هى المكان المتسع ، مأخوذة من الفجا ، وهو تباعد ما بين الفخذين ، ومنه قرطهم : رجل أفجى ، وأمرأة فجوا . والمفسرين في تأويل هذه الآية إنجأها من الخصم الإمام الرازى فقال : للمفسرين هنا قولان : أولهما : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهدوء الطيب والنسيم الموافق يصل .

والثاني : يرى أصحابه أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله - تعالى - ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول في حال غروبها ، وكان ذلك فعلا خارقا للمادة ، وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف ... (٩) .

ومن هذين الرأيين يتبين لنا أن أصحاب الرأى الأول ، يرجعون عدم وصول حر الشمس إلى هؤلاء الفتية إلى أسباب طبيعية حمام الله - تعالى - بها ومن بينها أن الكهف كان مفتوحا إلى جهة الشمال ...

أما أصحاب الرأى الثانى فيردون عدم وصول أشعة الشمس إليهم إلى أسباب غير طبيعية ، بمعنى أن الفتية كانوا في متسع من الكهف ، أى : في مكان تصيبه الشمس ، إلا أن الله - تعالى - بقدرة التى لا يعجزها شيء ، منع ضوء الشمس وحرها من الوصول إليهم ، خرقا للعادة على سبيل التكريم لهم .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن النفس أميل إلى الرأى الثانى ، لأن قوله - تعالى - « وهم في فجوة منه » يشير إلى أنهم مع إتساع المكان الذى ينامون فيه - وهو الفجوة - لا تصيبهم الشمس لا عند الطلوع ولا عند الغروب وهذا

أمر خارق لعاده ، ويدل على عجب حالهم ، كما أن قوله - تعالى - بعد ذلك :
 ذلك من آيات الله ، يشعر بأن أمر هؤلاء الفتية فيه غرابة ، وليس أمراً
 عادياً مألوفاً .

قال الألوسي : وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلاً وإن
 اختلفوا في منشأ ذلك ، واختار جمع منهم ، أنه لمحض حجب الله - تعالى -
 الشمس على خلاف ما جرت به العادة ، والاشارة تؤيد ذلك أتم تأييد ،
 والاستبعاد مما لا يلتفت إليه ، لا سيما فيما نحن فيه ، فإن شأن أصحاب الكهف
 كله على خلاف العادة . . . (١) .

وعلى هذا الرأي الثاني يكون لاسم الاشارة في قوله : ذلك من آيات الله
 إلى ما فعله الله - تعالى - معهم ، من حجب ضوء الشمس عنهم مع أنهم في
 متسع من الكهف .

أي : ذلك الذي فعلناه معهم من آياتنا الدالة على قدرتنا الباهرة ، وإرادتنا
 التي لا يعجزها شيء .

وأما على الرأي الأول فيكون لاسم الاشارة مرجعه إلى ما سبق من
 الحديث عنهم ، كمد ايدهم إلى التوحيد ، وإخراجهم من بين عبدة الأوثان ،
 ولجؤهم إلى الكهف ، وجعل باب الكهف على تلك المكيفية ، إلى غير ذلك
 مما ذكر - سبحانه - عنهم .

أي : ذلك الذي ذكرناه لك عنهم - أيها الرسول الكريم - هو من آيات
 الله الدالة على وحدانيته وقدرته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل
 فلن تجد له ولياً مرشداً . . .

أى : من يهده الله إلى طريق الحق ، وبوفقه إلى السواب ، فهو المهتد
أى : فهو الفائز بالخلافة الأوفى فى الدارين ، ومن يضلله الله - تعالى - عن
الطريق المستقيم ، فلن تجد له - يا محمد - نصيراً ينصره ، ومرشداً يرشده إلى
طريق الحق .

كما قال تعالى - : « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فأولئك هم
الخاسرون ، (١) » .

وكما قال سبحانه - : « ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد لهم
أولياء من دونه ... » (٢) .

ثم صرح سبحانه - بعد ذلك مشهداً عجيباً من أحوال هؤلاء الفتية فقال :
« ونحسبهم أيقاظاً وهم رقود ... » ،

والحسبان بمعنى الظن . والأيقاظ جمع يقظ وهو ضد النائم . والرقود
جمع رافد المراد به هنا : النائم .

أى : وتظنهم - أيها المخاطب لو قد - أنك أن تراهم - أيقاظاً متنبهين ، والحال
أنهم رقود أى : نيام

وقالوا : وسبب هذا الظن والحسبان ، أن عيونهم كانت مفتوحة ، وأنهم
كانوا يتقلبون من جهة إلى جهة ، كما قال - تعالى - بعد ذلك : « ونقلبهم
ذات اليمين وذات الشمال » .

أى : ونحركهم وهم رقود إلى الجهة التى تلى أيانهم ، وإلى الجهة التى تلى
شمالهم ، رعاية منا لأجسادهم حتى لا تأكل الأرض شيئاً منها بسبب طول
وقادهم عليها .

وعدد مرات هذا التقليب ليعلمه إلا الله - تعالى - ، وما أورده المفسرون
فى ذلك لم يثبت عن طريق النقل الصحيح ، لذا ضربنا صفحاً عنه .

ثم دين - سبحانه - حالة - كلهم فقال : وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد .
والمراد بالوصيد - على الصحيح - فناء الكهف قريباً من الباب ، أو هو
الباب نفسه . ومنه قول الشاعر : بأرض قضاء لا يسد وصيدها . أى :
لا يسد بابها .

أى : وكلهم الذى كان معهم فى رحلتهم - ماد ذراعيه بباب الكهف حتى
لكأنه يحرمهم . وينفع من الوصول إليهم .
وما ذكره بعض المفسرين هنا عن اسم الكلب وصفاته ، لم نتمم بذكره
لعدم فائدته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ولو أطلعت عليهم لوليت منهم فرار
ولمكت منهم رعباً . . .

أى : لو عاينتهم وشاهدتهم - أيها المخاطب - لأعرضت بوجهك عنهم من
هول ما رأيت . ولما قلبك خوفاً ورعباً من منظرهم .
وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاماً منها : أن صحة الاختيار لها من
الفوائد ما لها .

قال ابن كثير - رحمه الله - : ربح كلهم على الباب كما جرت به عاد
الكلاب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان
جلوسه خارج الباب . لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب - كما ورد فى
الصحيح وشملت كلهم بركنهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك
الحال ، وهذا فائدة صحة الاختيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . (١)
وقال القرطبي - رحمه الله - ما ملخصه : قال ابن عطية : وحدثني أبى قال
سمعت أبا الفضل الجوهري فى جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسب
وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير قال من بركتهم ، كلب أحب أم
فضل وصحيم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قلت - أى القرطبي - : إذا كان بعض السكّاب قال هذه الدرجة العليا بصحبة وعاطفه الصالحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك فله كتابه ، فإظلمك بالمؤمنين المحض الطين المحبين للأولياء . والصالحين ١١ بل فى هذا تسليمة وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات السكّات ، المحبين للنبي - صلى الله عليه وسلم - وآله خير آل .

روى فى الصحيح عن أنس قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم - خارجان من المسجد ، فلقينا رجلاً عند سدة المسجد ، فقال : يا رسول الله - متى الساعة ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما أعددت لها ؟ قال : فكأن الرجل استكان ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لهما كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، واسكنى أحببت الله ورسوله ، قال - صلى الله عليه وسلم - : فأنت مع من أحببت .

وفى رواية قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : فأنت مع من أحببت .

قال أنس : فإنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذى نفس ، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك ، وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن ، وإن كنا غير مستأهلين . (١)

ثم حكى - سبحانه - حال هؤلاء الفتية بعد أن أعاد إليهم الحياة ، فذكر بعض أقوالهم فيما بينهم فقال - تعالى - :

« وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ ، قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ ، فَاذْكُرُوا أَحَدَكُمْ كَمْ

وَرَقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَمَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ، وَلَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ، أَوْ يُعِيدُكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأَ (٢٠) ،

وقوله - سبحانه - : وكذلك بمشائهم ليتساءلوا بينهم ، بيان للعلة التي من أجلها بعث أصحاب المكلف من نومهم الطويل .

أى : وكما أنتمناهم تلك المدة الطويلة ، بمشائهم من نومهم بعدها ، ليسأل بعضهم بعضا ، وكانهم قد أحسوا بأن نومهم قد طال .

والاقتصار على التساؤل الذى حصل الإيقاظ من أجله ، لا ينفى أن يكون هناك أسباب أخرى غيره حصل من أجلها لإيقاظهم ، وإنما أفرد - سبحانه - بالذكر لاستتباعه لساائر الآثار الأخرى .

ثم حكى - سبحانه - بعض تساؤلهم فقال : د قال قائل منهم كم لبثتم ، أى : كم مكثتم مستغرقين فى النوم فى هذا المكلف .

فأجابه بعضهم بقوله : د لبثنا يوما ، لظنهم أن الشمس قد غربت ، فلما رأوها لم تغرب بعد قالوا : د أو بعض يوم . أى : مكثنا نائمين بعض ساعات اليوم .

ويصح أن تكون أو للشك . أى قال بعضهم فى الرد على سؤال السائل كم لبثتم . لبثنا فى النوم يوما أو بعض يوم ، لأننا لا ندرى على الحقيقة كم مكثنا نائمين .

ثم حكى القرآن أن بعضهم رد علم مقدار مدة نومهم على جهة اليقين إلى الله - تعالى - فقال : د قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، أى : ربكم وحده هو العليم بمقدار الزمن الذى قضيتهموه نائمين فى هذا المكلف .

قال الألوسى : وهذا رد منهم على الأولين ، على أحسن ما يكون من مراعاة حسن الأدب ، وبه كما قيل يتحقق التحزب إلى الحزبين المعهودين فيما سبق فى قوله - تعالى - د لنعلم أى الحزبين ، (١) .

وقال بعضهم : وقد استدل ابن عباس على أن عدد الفتية سبعة بهذه الآية ، لأنه قد قال في الآية قال قائل منهم وهذا واحد ، وقالوا في جوابه : لبثنا يوماً أو بعض يوم وهو جمع وأقنه ثلاثة ، ثم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، وهذا قول جمع آخر بن فصاروا سبعة ، (١) .

ثم بين سبحانه ما قالوه بعد أن تركوا الحديث في مسألة الزمن الذي قضوه نائمين في الكهف فقال - تعالى - : فابعثوا أحدكم يورثكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً .

أى : كفوا عن الحديث في مسألة المدّة التي ناموها ، عند الله . وابعثوا أحداًكم يورثكم ، - .

أى : بدراهمكم المضروبة من الفضه ، ، د إلى المدينة . التي يوجد بها الطعام الذي نحن في حاجة إليه ، والتي هي أقرب مكان إلى الكهف .

قالوا : والمراد بها مدينتهم التي كانوا يسكنونها قبل أن يلبثوا إلى الكهف فراراً بدينهم .

فلينظر أيها أزكى طعاماً ، أى : ومتى وصل إلى المدينة ، فليتفقد أسواقها ، وليتخير أى أطعمتها أحل وأطهر وأجود وأكثر بركة .

فليأتكم برزق منه وليتلطف ، أى : فليأتكم بما يسد جوعكم من ذلك الأزكى طعاماً ، فيكون الضمير في د منه ، للطعام الأزكى .

وبصح أن يكون للدراهم المضروبة المعبر عنها بورقكم ، أى : فليأتكم بدلاً منها بطعام تأكلونه ، وليتلطف ، أى : وليتكلف اللطف في الاستخفاف ، والدقة في استعمال الخيل حال دخوله وخروجه من المشيئة ، حتى لا يعرفه أحد من أهلها .

« ولا يشعرون بكم أحدا ، أى : ولا يفعلون فعلا يزدى إلى معرفة أحد من أهل المدينة بنا .

وقوله : « لأنهم إن يظهروا عليكم يرجعونكم أو يعيدونكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا ، تعليل الأمر والنهى السابقين .

أى : قولوا لمن يختارونه لشراء طعامكم من المدينة : عليه أن يتخير أذكى الطعام ، وعليه كذلك أن لا يخبر احدا بأمركم من أهل المدينة ، لأنهم « إن يظهروا عليكم ، أى : يطلعوا عليكم . أو يظهروا بكم .

وأصل معنى ظهر . أى : صار على ظهر الأرض . ولما كان ما عليها مشاهدا متمكنا منه ، استعمل نارة فى الإطلاع ، ونارة فى الظفر والغلبة ، وعدى بعلى .

« يرجعونكم ، أى : إن يعرفوا مكانكم ، يرجعونكم بالحجارة حتى تموتوا « أو يعيدونكم فى ملتهم ، الباطلة التى نجاكم الله - تعالى - منها .

« ولن تفلحوا إذا أبدا : أى : وإن عدتم لإيها بعد إذ نجاكم الله - تعالى - منها « وعصمكم من أتباعها « فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وهكذا نجد هاتين الآيتين تصوران لنا بأسلوب مؤثر بليغ « حال الفتية وم يقناجون فيها بينهم ، بعد أن استيقظوا من رقادهم الطويل .

ونراهم فى تناجيههم - بعد أن تركوا الحديث عن المدة التى لبثوها فى نومهم - نراهم حذرين خائفين ، ولا يدرون أن الأعوام قد كرت . وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت . وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها : وأن أعداءهم الكافرين قد زالت دولتهم

ثم نمضى السورة الكريمة لتحدثنا عن مشهد آخر من أحوال هؤلاء الفتية . مشهد تنجلي فيه قدرة الله - تعالى - على أبلغ وجهه ، كما تنجلي فيه حكمته ووحدايته ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن ذلك فبقول :

« وَكَذَلِكَ أَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، أَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ، إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) » .

فقوله - سبحانه - : « وَكَذَلِكَ أَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ، بَيَانٌ لِلْحِكْمَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَطْلَعَ اللَّهُ - تَعَالَى - النَّاسَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةِ .

قال الآلوسی ما ملخصه : وأصل العثور السقوط للوجه يقال : عثر عثورا وعثارا إذا سقط لوجهه ، ومنه قرطوب في المثل : الجواد لا يكاد يهثر . ثم يجوز به في الإطلاع على أمر من غير طلبه .

وقال بعضهم : لما كان كل عائر ينظر إلى موضع عثرته ، ورد العثور بمعنى الإطلاع والعرفان ، فهو في ذلك مجاز مشهور بملاقاة السببية . ومفعول « أَثَرْنَا » محذوف لقصد العموم ، أي : وكذلك أطلعنا الناس عليهم ، (١) .

والمعنى : وكما أنماهم تلك المدة الطويلة ، وبمقتناهم هذا البعث الخاص ، أطلعنا الناس عليهم ليعلم هؤلاء الناس عن طريق المعايين والمشااهدة ، أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ ، بِالْبُعْثِ « حَقٌّ ، وَصَدَقَ ، وَلِيَعْلَمُوا كَذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ ، أَيْ الْقِيَامَةُ ، آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَلَا شَكَّ فِي حُصُولِهَا ، فَإِنْ مِنْ شَاهِدٍ لَهْلِ الْكَهْفِ ، وَعَرَفَ أَحْوَالَهُمْ ، أَتَقَنُّ بِأَنِّ مَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى لِنَامَتِهِمْ تِلْكَ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ ثُمَّ عَلَى بَعْثِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ . فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْحَيَاةِ إِلَى الْمَوْتِ ، وَعَلَى بَعْثِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ .

رة - ذكروا في كيفية إطلاع الناس عليهم روايات ملخصها : أن زميلهم الذي أرسلوه بالدرهم إلى السوق لبشترى لحم طامعا عندما وصل إلى سوق المدينة ، عمد إلى رجل من يبيع الطامام ، فدفع إليه ما معه من نقود لكي يأخذ في متابعتها طامعا ، فلما رأى البائع النقود أنكرها - لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد - وأخذ يطلع عليها بقية التجار ، فقالوا له : أبى وجدت هذه الدراهم ؟ فقال لهم : بعث بها أمس شيئا من الغر ، وأنا من أهل هذه المدينة ، وقد خرجت أنا وزملائي إلى المكهف خوفا من إنداء المشر كين لنا فأخذوه إلى ملكهم ونصروا عليه قصته . فسر الملك به ، وذهب معه إلى المكهف ليرى بقية زملائه فلما رآهم سلم عليهم . . ثم أمانهم الله - تعالى - ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمرهم بعد وفاتهم واختلاف الناس في شأنهم ، فقال : إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا ابنوا عليهم بيانا ربهم أعلم بهم . . والظرف ، إذ ، متعلق بمحذوف تقديره : اذكروا ويتنازعون من التنازع بمعنى الاختصاص والاختلاف ، والضمير في « أمرهم » يعود إلى الفتية ، والمعنى : لقد قصصنا عليك - أيها الرسول الكريم - قصة هؤلاء الفتية . وبيننا لك أحوالهم عند رقادهم ، وبعد بعثهم من نومهم ، وبعد الاعتثار عليهم ، وكيف أن الذين عثروا عليهم صاروا يتنازعون في شأنهم . فمنهم من يقول إنهم وجدوا في زمن كذا ، ومنهم من يقول إنهم مكثوا في كهفهم كذا سنة ، ومنهم من يقول نبئى حولهم ببيانا صدفته كذا .

ويجوز أن يكون الضمير في « أمرهم » يعود إلى الذين أصلهم الله على الفتية ، فيمكن المعنى : اذكروا وقت تنازع هؤلاء الذين عثروا على الفتية وتخاصمهم فيما بينهم ، حيث إن بعضهم كان مؤمنا . وبعضهم كان كافرا ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأرواح والأجساد ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأجساد فقط .

وقوله - تعالى - : « فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ، تفسير للمتنازع فيه ،
وبيان لما قاله بعض الذين اطلعوا على أمر الفتية .

أى اختلاف الذين عثروا على الفتية فقال بعضهم : ابنوا على باب كهفهم
بنيانا . حتى لا يصل الناس إليهم ، وحتى نصورهم من الأذى .

وقوله - تعالى - : « ربهم أعلم بهم » ، يحتمل أنه حكاية لكلام طائفة من
المتنازعين في شأن أصحاب الكهف ، وقد قالوه ليقطعوا النزاع في شأنهم ،
وليفوضوا أمرهم إلى الله - تعالى - .

ويحتمل أن يكون من كلام الله - تعالى - ردا للخائضين في شأنهم .
أى : اتركوا أيها المتنازعون ما اهتم فيه من تنازع ، فإنى أعلم منكم بحال
أصحاب الكهف .

ثم ختم - سبحانه - الآية المكرمة بقوله : « قال الذين غلبوا على أمرهم
لنتخذن عليهم مسجدا » .

أى : أن الذين اعترضهم الله على أصحاب الكهف قال بعضهم : ابنوا على
هؤلاء الفتية بنيانا يسترم .. وقال الذين غلبوا على أمرهم ، وهم أصحاب الكلمة
النافذة ، والرأى المطاع ، لنتخذن على هؤلاء الفتية مسجدا ، أى : معبدا
تبركاً بهم .

قال الألوسى : واستدل بالآية على جواز البناء على قبور للصلحاء واتخاذ
مسجد عليها ، وجواز الصلاة في ذلك ، وعن ذكر ذلك الشهاب الحفاجى فى
حواشيه على البيضاوى . وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد ، فقد روى أحمد
وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد
والسرج .

وزاد مسام : « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم
مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ... » (١) .
ثم حكى السورة بعد ذلك ما أثير من جدل حول عدد أصحاب الكهف وأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يكل ذلك إلى الله - تعالى - وحده ، فقال - سبحانه - :

« سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) » .

أى : سيختلف - الناس - فى عدة أصحاب الكهف - أيها الرسول الكريم - فمن الناس من سيقول إن عدتهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول : إنهم خمسة سادسهم كلبهم .

فالضحية فى قوله « سيقولون » ، وفى الفعلين بعده . يعود لأولئك الخائضين فى قصة أصحاب الكهف وفى عددهم ، على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - .
قال الجبل : قيل إنما أنى بالسين فى هذا لأن الكلام طيا وإدماجا تقديره فإذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف ، فسلمهم عن عددهم فإنهم سيقولون ثلاثة .

ولم يأت بها فى بقية الأفعال ، لأنها معطوفة على ما فيه لسين فأعطيت حكمة من الاستقبال ، (٢) .

وقال صاحب الكشاف . فإن قلت : لماذا جاء بسين الاستقبال فى الأول دون الآخرين ؟

(١) راجع تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٢٣٧ .

(٢) حاشية الجبل على الجلالين ج ٣ ص ١٦ .

قلت : فيه وجبان : أن تدخل الآخرين في حكم السين ، كما تقول : قد أكرم وأنعم .

تردد معنى التوقع في الغماين جميعا وأن تردد بفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له ، (١) .

وقوله ، ثلاثة . خير لمبتدأ محذوف ، أى : هم ثلاثة .

وقوله ، تعالى - : رجما بالغيب ، رد على القائلين بأهم ثلاثة رابعهم كلهم ، وعلى القائلين بأهم خمسة سادسهم كلهم .

وأصل الرجم : الرمي بالحجارة ، والمراد به هنا : الفول بالظن والحدس والتخمين بدون دليل أو برهان .

قال صاحب الكشف قوله : رجما بالغيب ، أى : رميا بالخبر الخفى وإتيانا به . كقوله : وبفذفون بالغيب من مكان بعيد ، أى : يأتون به . أو وضع الرجم ، وضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب . لأنهم أكثر وأن يقولوا : رجم بالظن ، مكان قولهم : ظن . حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين . ألا ترى إلى قول زهير : وما هو عنها بالحديث المرحوم . . أى : المظنون ، (٢) .

وقوله : رجما ، منصوب بفعل مقدر . والباء في « بالغيب » ، للتعديده ، أى : يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم ، والذي لإطلاع لهم على حقيقته ، شأنهم في ذلك شأن من رمى بالحجارة التى لا تصيب المرمى المقصود .

ثم حكى - سبحانه - القول الذى هو أقرب الأقوال إلى الصواب فقال : ويقولون سبعة وثامنهم كلهم .

أى : وبعض الناس - وهم المؤمنون - يقولون إن عدد أصحاب الكهف سبعة أفراد وثامنهم كلهم ،

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٤٧٨ .

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٤٧٨ .

قال ابن كثير : - يقول - تعالى - مخبرا عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف . حكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع . ولما ضعف القولين الأولين بقوله : « رجما بالغيب » .

أى : قول بلا علم ، كن يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإذا أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث وسكت عليه أوفرره بقوله : « وثامنهم كلبهم » ، دل على صحته ، وأنه هو الواقع في نفس الأمر ، (١) .

وقال الآلوسى ما ملخصه : والجملة الواقعة بعد العدد في قوله - تعالى - : « ويقولون سبعة » وثامنهم كلبهم ، في موضع الصفة له ، والواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة المضمرة ، كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في قولك : جاءني رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفي يده سيف ، ومنه قوله - تعالى - : « وما أهلكننا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » .

وفائدتها توكيد اصرق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن إحصائه بها أمر ثابت مستقر وهي التي أذنت هنا بأن قائل ما ذكر ، قالوه عن ثبات علم . وطعاً نينه نفس ، ولم يرجعوا بالظن كما رجم غيرهم فهو الحق دون القولين الأولين . . . ، (٢) .

ثم أمر الله - تعالى - النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الخائفين في عدة أصحاب الكهف ، بما يقطع التنازع الذي دار بينهم فقال : « قل رب أعلم بعدتهم » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لمن خافوا في عدة أصحاب الكهف : ربى - عز وجل - أقرى علما منكم بعدتهم - أيها المتنازعون ، فإنكم إن علمتم عنهم شيئاً علماً ظاهراً . فإن علم ربى بهم هو علم تفصيلي يقينى لا يفادى صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم أنبت - سبحانه - علم عددهم لقليل من الناس فقال : « وما يعلمهم إلا قليل » ، أى : ما يعلم أصحاب الكهف إلا عدد قليل من الناس .

ولا تعارض بين هذه الجملة وبين سابقتها ، لأن علم هذا العدد القابل من الناس بعدة أصحاب الكهف ، هو علم إجمالى ظنى . . . أما علم الله - تعالى - فهو علم تفصيلى يقينى شامل لجميع الأزمنة .

ففضلا عن أن علم هؤلاء القلة من الناس بعدة أصحاب الكهف ، نابع من إعلام الله - تعالى - لهم عن طريق الوحى كالرسول - صلى الله عليه وسلم - أو من يطلعه الرسول - صلى الله عليه وسلم على عدتهم .
قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة .
ثم ذكر أسماءهم .

ثم نوى الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - عن الجدال المتعمق فى شأنهم ، كما نهاه عن استفتاء أحد فى أمرهم فقال - تعالى - فلا تمار فيهم إلا مرأا ظاهرا . ولا تستفت فيهم منهم أحدا .
والمرأ : هو الجدال والمحااجة فيما فيه مريبة ، أى : تردد . مأخوذ من مريت الناقة إذا كررت مسح ضرعها للجلاب .

والاستفتاء : طلب الفتيا من الغير . والفاء فى قوله : فلا تمار ، للتفريع .

أى : إذا كان الشأن كما أخبرناك عن حال أصحاب الكهف ، فلا تجادل فى أمرهم أحدا من الخاضعين فيه لإلجاء لا واضحا لا يتجاوز حدود ما قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - ولا تطالب الفتيا فى شأنهم من أحد ، لأن ما قصصناه عليك من خبرهم ، يغنيك عن السؤال . وعن طلب الإيضاح من أهل الكتاب أو من غيرهم .

ثم نهى الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن الإجبار عن فعل شئ فى المستقبل إلا بعد تقديم مشيئة الله - عز وجل - فقال :

« وَلَا تَقْوَانِ لَ شَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ،

وَإِذْ كُنَّا رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) ،

قال القرطبي : قال العلماء : عاتب الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن في ذلك .

فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به ، فزلت عليه هذه السورة مفرجة . وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلن ذلك بمشيئة الله - عز وجل - حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا ، وإذا قال : لأفعلن ذلك - إن شاء الله - خرج عن أن يكون محققا للخبر عنه ، (٢) .

والمراد بالغد : ما يستقبل من الزمان ، ويدخل فيه اليوم الذي يبلى اليوم الذي أنت فيه دخولا أوليا . وغير عما يستقبل من الزمان بالغد للتأكيد .

أي : ولا تقوان - أيها الرسول الكريم - لأجل شيء تعزم على فعله في المستقبل : إني فاعل ذلك الشيء غدا ، إلا وأنت مقرر قواك هذا بمشيئة الله - تعالى - وإذنه ، بأن تقول : سأفعل هذا الشيء غدا ، بإذن الله ومشيئته ، فإن كل حركة من حركاتك - ومن حركات غيرك - مرهونة بمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، وما يتعلق بمستقبلك ومستقبل غيرك من شئون ، هو في علم الله - تعالى - وحده .

وليس المقصود من الآية المكرمة نهي الإنسان عن التأمك في أمر مستقبله وإنما المقصود نهي عن الجزم بما يقع في المستقبل ، لأن ما يقع عليه عند الله - تعالى - وحده .

والعاقل من الناس هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله - تعالى - سواء أكانت هذه الأسباب تتعلق بالماضى أم بالحاضر أم بالمستقبل ، ثم يقرن كل ذلك بمشيئة الله - تعالى - وإرادته . فلا يقول : سأفعل غدا كذا وكذا لأننى أعددت العدة لذلك ، وإنما يقول : سأفعل غدا كذا وكذا إذا شاء الله - تعالى - ذلك وأراد ، وأن يوقن بأمر إرادة الله فوق إرادته ، وتديره - سبحانه - فوق كل تدبير ..

وكم من أمور أعد الإنسان لها أسبابها التى تؤدى إلى تضاعفها . . . ثم جاءت إرادة الله - تعالى - فغيرت ما أعد ذلك الإنسان ، لأنه لم يستشعر عند إعدادهِ للأسباب أن . إرادة الله - تعالى - فوق إرادته ، وأنه - سبحانه - القادر على خرق هذه الأسباب ، وخرق ما تؤدى إليه ، ولأنه لم يقل عندما يريد فعله فى المستقبل : إن شاء الله .

وقوله : « وأذكر ربك إذا نسيت » تأكيد لما قبله أى : لا نقول أن فعل غدا إلا ملتبسا بقول : إن شاء الله ، وأذكر ربك - سبحانه - إذا نسيت تعليق القول بالمشيئة ، أى : عند تذكرك بأنك لم تقرن قولك بمشيئة الله ، فأت بها .

قال الآلوسى : قوله « وأذكر ربك » أى : مشيئة ربك ، فالمكلام على حذف مضاف ، إذا نسيت أى : إذا فرط منك نسيان ذلك ثم تذكرته . فهو أمر بالتدراك عند التذكير . . . ، (١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : للمفسرين فى تفسير قوله - تعالى - : « وأذكر ربك إذا نسيت » قولان :

الأول . أن هذه الجملة مرتبطة ومتعلقة بما قبلها : والماضى : لك إن قلت .

سأفعل غدا كذا ونسيت أن أقول إن شاء الله ، ثم تذكرت بعد ذلك فقل :
إن شاء الله .

أى : أذكر ربك معلقا على مشيئته ما تقول أنك ستفعله غدا إذا
تذكرت بعد النسيان .

وهذا القول هو الظاهر ، لأنه يدل عليه ما قبله ، وهو قوله - تعالى - :
« ولا تقولن شيئا لى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » وهو قول الجمهور .
الثانى : أن هذه الجملة لا تعلق لها بما قبلها ، وأن المعنى : إذا وقع منك
النسيان لشيء ما ذكر ربك ، لأن النسيان من الشيطان . كما قال - تعالى - عن
فتى موسى . . وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكر . . . (١) .

وعلى هذا القول يكون المراد بالذكر : التسبيح والاستغفار . وعلى الأول
المراد به أن تقول : إن شاء الله أو ما يشبه ذلك .

والمقصود من هذه الآية الكريمة بيان أن تعليق الأمور بمشيئة الله
- تعالى - هو الذى يجب أن يفعل ، لأنه - تعالى - لا يقع شيء إلا بمشيئته فإذا
نسى المسلم ثم تذكر ، فإنه يقول : إن شاء الله ، يخرج بذلك من عهدة
عدم التعليق بالمشيئة ، وبذلك يكون قد فوض أمره إلى الله - تعالى - .

وليس المقصود بها التحلل من يمين قد وقعت ، لأن تداركها قد فات
بالانفصال ، ولأن الإستهناء المتأخر لا أثر له ولا تحمل به اليمين .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وقل عسى أن يهدين ربى
لأقرب من هذا رشدا » أى : قدم - أيها الرسول الكريم - مشيئة ربك عند
إرادة فعل شيء ، وات بها إذا نسيت ذلك عند التذكير ، وقل عسى أن يوفقنى
ربى ويهدينى وبذلنى على شيء أقرب فى الهداية والإرشاد من هذا الذى قصصته
عليكم من أمر أصحاب الكهف .

قال صاحب الكشف : وقوله : « لا قرب من هذا . . » اسم الإشارة يعود إلى نداء أصحاب الكهف : ومعناه : لعل الله يؤتى من البينات والحجج على أنى نبي صادق ، ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشداً من نداء أصحاب الكهف . وقد فعل - سبحانه - ذلك ، حيث آتاه من قصص الأنبياء ، والإخبار بالغيوب ، ما هو أعظم من ذلك وأذل ، (١) .

ثم بين - سبحانه - على وجه اليقين ، المدة التي قضاها أصحاب الكهف راقدين في كهفهم ، فقال - تعالى - :

« وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ (٢٦) » .
أى : أن أصحاب الكهف مكثوا في كهفهم راقدين ثلاثمائة سنين ، وازدادوا فوق ذلك سبع سنين .

فالآية الكريمة لإخبار منه - سبحانه - عن المدة التي لبثها هؤلاء الفتية مضروباً على آذانهم .

وقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا » ، تقرير وتأكيد ليكون المدة التي لبثوها هى ما سبق بيانه في الآية السابقة :

فكانه - سبحانه - يقول : هذا هو فصل الخطاب في المدة التي لبثوها راقدين في كهفهم ، وقد أعلمك الله - تعالى - بذلك - أيها الرسول الكريم - ، وما أعلمك به فهو الحق الصحيح الذى لا يحوم حوله شك ، فلا تلتفت إلى غيره من أفعال الخائفين في أمر هؤلاء الفتية ، فإن الله - تعالى - هو الأعلم بحقيقة ذلك .

ويرى بعضهم أن قوله - تعالى - : « ولبثوا في كهفهم ... » حكاية لكلام أهل الكتاب في المدة التي لبثها أهل الكهف قياما في أهل كهفهم ، وأن قوله « قل الله أعلم بما لبثوا » للرد عليهم .

وقد حكى الإمام ابن كثير القولين ، ورجح الأول منهما فقال : هذا خير من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم ، منذ أن أرقبهم الله إل أن بعثهم وأعطى عليهم أهل ذلك الزمان . كان مقداره ثلاثمائة سنين وتسع سنين بالهلاليتين وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين . فلهذا قال بعد الثلاثمائة « وازدادوا تسعا » .

وقال قتادة في قوله : « ولبثوا في كهفهم ... » وهذا قول أهل الكتاب وقد رده الله - تعالى - بقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا » .

وفي هذا الذي قاله قتادة نظر ، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع : ولو كان الله - تعالى - قد حكى قولهم لما قال : « وازدادوا تسعا » ، وظاهر الآية أنه خبر عن الله لا حكاية عنهم . . . (١) .

وقوله - تعالى - : « له غيب السموات والأرض » تأكيد لاختصاصه - عز وجل - بعلم المدة التي لبثوها ، أي : له - سبحانه - وحده علم ما خفي وخاب من أحوال السموات والأرض ، وأحوال أهلها ، كما قال - تعالى - : « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء » .

وقوله - سبحانه - : « أبصر به وأسمع » صيغتا تعجب : أي : ما أبصره وما أسمعته - تعالى - والمراد أنه - سبحانه - لا يخفى عن بصره وسمعه شيء . وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التعجب ، للدلالة على أن أمره - تعالى - في الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرين والسماعين . إذ لا يحجب شيء ، ولا يتفاوت عنده لطيف وكثيف ، وصغير وكبير ، وجل وخفي .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا » .

أى ليس لأهل السموات ولا لأهل الأرض ولا لغيرهما غير الله - تعالى - نصير بنصرهم ، أو ولي يلى أمرهم . ولا يشرك - سبحانه - في حكمه أو قضائه أحدا كائنا من كن من خلقه . كما قال - تعالى - « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

هذا ، وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات مسائل منها .

(١) مكان الكهف الذى لجأ إليه هؤلاء الفتيّة ، والزمن الذى ظهر وافته . أما مكان الكهف فله علماء فيه أقوال : من أشهرها أنه كان بالقرب من مدينة تسمى « أسسوس » ، وهى من مدن تركيا الآن ، قالوا إنها تبعد عن مدينة « إزمير » بحوالى أربعين ميلا . وتعرف الآن باسم : « إياز بوك » .

وقيل : إنه كان ببلدة تدعى « أبسس » - بفتح الهمزة وسكون الباء وضم السين - وهذه البلدة من نغور ، طرسوس ، بين مدينة حلب بسوريا ، وبلاد أرمينية وأنطاكية .

وقيل : إنه كان ببلدة تسمى « بتراء » بين خليج العقبة وفلسطين . . . إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة ، التى لا نرى داعيا لذكرها ، لقلة فائدتها . وأما الزمن الذى ظهر وافته ، فيرى كثير من المفسرين أنه كان فى القرن الثالث الميلادى فى عهد الإمبراطور الرومانى « دقيانوس » ، الذى كان يحمل الناس حملا على عبادة الأصنام ، ويمذب من يخالف ذلك .

(ب) العبر والعظات والأحكام التى تؤخذ من هذه القصة . ومن أهمها :

١ - لإثبات صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، حيث أخبر - عن طريق ما أوحاه الله لإيه من قرآن - عن قصة هؤلاء الفتيّة ، وبين وجه الحق فى شأنهم ورد على ما خاضه الخائفون فى أمرهم « وصدق الله إذ يقول : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » . . . » .

٢ - الكشف عن جانب من بلاغة القرآن الكريم في قصصه ، حيث ساق هذه القصة بحملة في الآيات الأربع الأولى منها ثم ساقها مفصلة بعد ذلك تفصيلا حكيما . وفي ذلك ما فيه من تمسك أحداثها وهداياتها في القلوب .

والمرشد العاقل هو الذي ينتفع بهذا الأسلوب القرآني في وعظه وإرشاده .

٣ - بيان أن الإيمان متى استقر في القلوب ، هان كل شيء في سبيله . ف هؤلاء الفتية آثروا الفرار بدينهم ، على البقاء في أوطانهم ، لكي تسلم لهم عقيدتهم . . . فهم كما قال - سبحانه - في شأنهم : **لهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى** .

٤ - بيان أن على المؤمن أن يلبأ إلى الله بالدعاء - لا سيما عند الشدائد والكروب - وأنه متى اتقى الله - تعالى - وأطاعه ، جعل له - سبحانه - من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وصانعه من سوءه . ف هؤلاء الفتية عندما لجأوا إلى الكهف ، تضرعوا إلى الله بقولهم : **ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا** .

فأجاب الله دعاءهم ، حيث ضرب على آذانهم في الكهف سنين عددا ، وجعل الشمس لا تصل إليهم مع أنهم في جفوة من الكهف . وصان أجسادهم من البلى والتعفن بأن قلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وأنام كلهم بعتبة باب الكهف حتى لكانه حارس لهم : **وألقى الطيبة عليهم بحيث لو رآهم الرائي لولى منهم فرارا** . ولما قلبه رعبا من منظرهم .

وسخر أصحاب النفوذ والقوة للدفاع عنهم . وللتعجيز عن تذكرهم لهم بقولهم : **دلتنا نحن عليهم مسلحين** .

• - بيان أن ثقة كبير السليم . المصحوب بالنية الطيبة . والعزيمة الصادقة ،

يؤدى إلى الاهتداء إلى الحق ، وأن القلوب النقية الطاهرة تتعاون على الخير والتقوى لا على الإثم والعدوان . وأن نضح الباطل والكشف عن زيفه . . . دليل على سلامة اليقين .

فهؤلاء الفتية اجتمعوا على الحق ، وربط الله على قلوبهم إذا قاموا للوقوف في وجه الباطل ، وهداهم تفكيرهم السليم إلى أن المستحق للعبادة هو ربهم رب السموات والأرض ، وأن من يعبد غيره يكون قد افترى على الله كذباً . . .

وإن اعتزال المكفر . يوصل إلى نشر الرحمة ، والظفر بالسداد والتوفيق . ولذا توأصوا فيما بينهم بقولهم : . فأروا إلى السكف ينشر لكم ربكم من رحمته ، وبهى ، لكم من أمركم مرفقا ، .

٦ - بيان أن مباشرة الأسباب المشروعة لا تنافي التوكل على الله .

فهؤلاء الفتية عندما خرجوا من ديارهم ، أخذوا بعض التقود . وبعد بعثهم من رقادهم أرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضّر لهم طعاماً طاهراً حللاً ، وأوصوه بالتلطف في أخذه وعطائه وبكتمان أمره وأمرهم حتى لا يعرف الأعداء مكانهم .

ومكثوا العقلاء ، لا يمنهم توكلهم على الله - تعالى - من أخذ الحيلة والخذل في كل شئورهم التي تستدعى ذلك .

٧ - إقامة الأدلة وأعظمها على أن البعث حق . لقد أطلع الله - تعالى - الناس على هؤلاء الفتية ، ليوقنوا بأنه - سبحانه - قادر على إحياء الموتى . . . لأن من يقدر على بعث الراقيين من رقادهم بعد مئات السنين ، فهو قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

٨ - بيان أن من الواجب على المؤمن إذا أراد فعل شئ أن يقرن ذلك بمشيئة الله - تعالى - ، لأنه - سبحانه - بيد الأمر كله ، وصدق الله إذ يقول : ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، .

عنه بعض العظات والأحكام التي نرشدنا إليها هذه الفصه . وقد ذكرنا جانباً آخر منها خلال تفسيرنا للآيات التي اشتملت عليها . ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتبه المفسرون في ذلك (١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بمداومة التلاوة لما أوحاه إليه - سبحانه - ، فإن فيه فصل الخطاب وبالحفاوة بالمؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ؛ وبإعلان كلمة الحق فن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فقال - تعالى - :

« وَاَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاضْبِرْ أَنْفُسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ رِيْدَ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْوَيْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَنَ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ، أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يَغْنَاؤُا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوْهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، مَتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) » .

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٢١ ص ٨١ ، وفتح القزطبي ج ١٠ ص ٣٥١

وتفسير آلوسي ٢٩ ، وفتح أضواء البيان ج ٤ ص ١٨ .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « وائل ما أوحى إليك .. » اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى - عليه السلام - والخضر ، كلام واحد في قصة واحده وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن أردت أن تؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء .. » فنهاه الله عن طردهم لأنه مطلوب فاسد ... ثم لأنه - سبحانه - أمره بالمواظبة على تلاوة كتابه ، وأن لا يلتفت إلى إقتراح المقترحين ، وتعنّت المتعنّتين .. (١) .

وقوله - سبحانه - : « وائل .. » فعمل أمر من التلاوة بمعنى القراءة .

أي : وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تواظب وتداوم على قراءة ما أوحيناه إليك من هذا القرآن الكريم ، وأن تقبّع إرشاداته وتوجيهاته ، فإن في ذلك ما يهديك إلى الطريق الحق ، وما يغنيك عن السؤال والاستفتاء ، قال - تعالى - : « إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور ، » (٢) .

وصيغة الأمر في قوله - سبحانه - : « وائل .. » لإبقاء الفعل لا لإيجاده ، كما في قوله - تعالى - : « أهدنا الصراط المستقيم ، »
و « من ، » في قوله « من كتاب ربك ، » بيانية .

وقوله : « لا مبدل لمكلماته ، أي : ليس في هذا السكون أحد في مكانه أن يغير أو يبدل شيئا من المكلمات التي أوحاه الله - تعالى - إليك - أيها الرسول الكريم - ، لأننا قد تكلمنا بحفظ هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك .
قال - تعالى - : « ونمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لمكلماته وهو السميع العليم ، » (٣) .

(١) تفهيم الفخر الرازي ج ٢١ ص ١١٤

(٢) سورة فاطر الآية ٢٩ (٣) سورة الأنعام الآية ١١٥

وقال - سبحانه - ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، (١) .

فالجملة الكريمة وهى قوله - سبحانه - لا مبدل لِكَلِمَاتِهِ ، نفت قدرة أحد على تبديل كلمات الله ، لأن أخبارها صدق ، وأحكامها عدل ، وإنما الذى يقدر على التغيير والتبديل هو الله - تعالى - وحده .

والضمير فى كلماته ، يعود على الله - تعالى - ، أو على الكتاب .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : **وإن نجد من دونه ملتحدا :** .
وأصل الملتحد : مكان الإلتحاد وهو إفتعال من اللحد بمعنى الميل . ومنه اللحد فى القبر ، لأنه ميل فى الحفر . ومنه قوله - تعالى - : **وإن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ...** أى : **يملون فى آياتنا .**

فالمراد بالملتحد : المكان الذى يميل فيه إلى ملجأ للمنجاة .

والمعنى : ودوام أيتها الرسول الكريم على تلاوة ما أوحيناه إليك من كتابنا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأعلم أنك إن خالفت ذلك لن نجد غير الله .. تعالى .. ملجأ ملجأ إليه ، أو مأوى مأوى إليه ، لكى تنجو مما يربده بك .

فالجملة الكريمة تدبيل قصد به التحذير الشديد .. فى شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - لكل من يقصر فى تلاوة كتاب الله ، أو يحاول التبديل فى ألفاظه ومعانيه .

ثم ساقّت السورة الكريمة لونا من الأدب السامى ، والتوجيه العالى ، حيث بيّنت أن أولى الناس بالرعاية والمجالسة هم المؤمنون الصادقون ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يصبر نفسه معهم ، فقال - تعالى - : **وَأصبر بنفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ...**

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت في أشراف قرين ، حين طلبوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه كعبلا وعمار وان مسعود
وليفرد أولئك يجلس على حدة ، فنهاه الله - تعالى - عن ذلك . . . وأمره أن يصبر بنفسه في الجلوس مع هؤلاء الفقراء فقال : : واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . . (١) .

وصبر النفس معناه : حبسها وتبقيتها على الشيء . يقال : صبرت فلانا أصبره صبرا ، أى : حبسته .

والغداة : أول النهار . والعشي : آخره .

والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تحبس نفسك وتعودها على مجالسة أصحابك الذين يدعون ربهم ، أى : يعبدونه ويتقربون إليه بهشتى أنواع القربات ، في الصباح والمساء ، ويدأومون على ذلك ، دون أن يريدوا شيئا من وراء هذه العبادة ، سوى رضا الله - تعالى - عنهم ورحمته بهم .

وفي تخصيص الغداة والعشي بالذكر : إشتغال بفضل العبادة فيهما : لأنهما محل الغفلة والاشتغال بالأمور الدنيوية غالبا .

ويصح أن يكون ذكر هذين الوقتين المقصود به مداومة العبادة ، وإلى هذا المعنى أشار الآلوسى بقوله : قوله : . يدعون ربهم بالغداة والعشي ، أى : يعبدونه دائما . وشاع استعمال مثل هذه العبارة للدوام . وهى تظير قولهم : ضرب زيد الظهر والبطن . يريدون به ضرب جميع البدن . وأبقى غير واحد اللفظين على ظاهرهما أى : يعبدونه في طر في النهار . ، (٢) .

(١) تفهيم ابن كثير ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٦٢ .

وقوله : « يريدون وجهه » ، مدح لهم بالإخلاص والبعد عن الرياء والجاهة فهم لا بتقربون إلى الله - تعالى - بالطاعات من أجل دنيا يصيبونها . أو من أجل إرضاء الناس .

ولأنهم يبتغون بعبادتهم رضا الله - تعالى - وحده ، لا شيئاً آخر من حظوظ الدنيا .

وقوله - سبحانه - : « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . . . »
 نهى له صلى الله عليه وسلم - عن الغفلة عنهم ، بعد أمره بحبس نفسه عليهم -
 والفعل « تعد » بمعنى تصرف . يقال عداه عن الأمر عدوا إذا صرفه عنه وشغله .

أى : أحبس نفسك مع هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - سبحانه - ، ولا تصرف عينك أنظر عنهم ، وتتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء ، طمعا في إسلامهم -

فالمراد بإرادة الحياة : الحرص على مجالسة أهل الغنى والجاه حبا في إيمانهم .

وجملة « تريد زينة الحياة الدنيا » ، في موضع الحال من الضمير المضاف إليه في قوله « عيناك » ، وإنما ساغ ذلك لأن المضاف هنا جزء من المضاف إليه .
 وقوله - تعالى - « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وانبع هواه وكان أمره فرطا » ، نهى آخر مؤكدا لما قبله من حبس نفسه - صلى الله عليه وسلم - على هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وعدم صرف نظره عنهم إلى غيرهم من المتغطرسين الأغنياء .

والفرط - بهم الفاء والراء - : تجاوزة الحد ، ونبد الحق والصواب ، وإتباع الباطل والضلال .

أى : ولا تطع - أيها الرسول الكريم - في تمجيح المؤمنين الفقراء عن (٥ - سورة المكهف)

مجلسك ، أقرأ أولئك الغافلين عن طاعتنا وعبادتنا لاستحوذ الشيطان عليهم ،
والذين انبعثوا أهواءهم فأثروا الضلال على الرشد ، والذين كان أمرهم فرطاً
أي : مخالفاً للحق ، وجاوزوا للصواب ، ومؤدباً للضياع والخسران .

قال ابن جرير - بعد أن ذكر جملة من الأقوال في معنى قوله - تعالى - :
« فرطاً » : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب - قول من قال معناه : ضياعاً
وملاكا . من قولهم : أفرط فلان في هذا الأمر إفراطاً ، إذا أسرف فيه ،
وتجاوز قدره . وكذلك قوله : « وكان أمره فرطاً » .

معناه : وكان أمر هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذكرنا في الرباء والكبر
واحتقار أهل الإيمان سرفاً قد تجاوز حده ، فضيع بذلك الحق وهلك ، (١) .
فآية الكريمة تدعو للناس توجيهاً حكيماً في بيان القيم الحقيقية للناس ؛
وهي أنها تتمثل في الإيمان والتقوى ، لا في الغنى والجاه . . .

فالؤمن الصادق في إيمانه ، الكريم في أخلاقه . . . هو الذي يحرم على
مخالطة أهل الإيمان والتقوى . ولا يمنعه فقرهم من مجالستهم وصاحبهم
ومؤانسهم والتواضع لهم ، والتقدم إليهم بما يسرهم ويشرح صدورهم . . .

ولقد ربي النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه على هذا الخلق الكريم ،
روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي قال : مر رجل على النبي - صلى الله
عليه وسلم - فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك في هذا » ؟ فقال : رجل من
أشر الناس ، هذا والله حري إن خطب أن يزوج وإن شفع أن يشفع . فسكت
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال له - صلى الله عليه وسلم - : « وما رأيك
في هذا » ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين هذا والله حري
إن خطب لا يزوج وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا، (١).

نم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يجر بكلمة الحق في وجوه المستكبرين ، فقال : د قل الحق من ربكم فن شاء ، فليؤمن ومن شاء فليكفر ... ،

أى : وقل : أيها الرسول - طولا - الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا ، واتبعوا أهواءهم ، وكان أمرهم فرطا ، قل لهم : هذا الذي جئتمكم به من قرآن هو الحق من ربكم وخالفكم

فقوله : الحق من ربكم ، خير لمبتدأ محذوف .

أو أن لفظ الحق ، مبتدأ ، والجار والمجرور خبره . أى : الحق الذي جئتمكم به في هذا القرآن العظيم ، كائن مبدؤه من ربكم ، وليس من أحد سواه .

وليس المراد من قوله : فن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، التخيير بين الإيمان والكفر ، بل المراد به التهديد والتخويف ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : إنا أعتدنا للظالمين نارا ... الخ

أى : قل لهم جئتمكم من ربكم بالحق الذي يجب إتباعه ، فن شاء أن يؤمن به فليفعل فإن عاقبته الخير والثواب ، ومن شاء أن يكفر به فليكفر فإن عاقبته الخسران والعقاب ، كما بين - سبحانه - ذلك في قوله :

د إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها

والسرادق : كل ما أحاط بهيره ، كالحائط أو السور الذي يحيط بالبناء ، فيمنع من الوصول إلى ما بداخله .

أى : لانا هيأنا وأعددنا للكافرين بهذا الحق نارا مهولة عظيمة ، أحاط بهم صياحها إحاطة تامة ، بحيث لا يستطيعون الخروج منه ، وإنما هم محصورون بداخله . كما ينحصر الشيء بداخل ما يحده من كل جانب .

وقوله : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه » ، بئس الشراب ، وساءت مرتفقا ، بيان لما ينزل بهم من عذاب عندما يطلبون الغوث مما هم فيه من كرب .

والمهل في اللغة : يطلق على ما أذيب من جواهر الأرض ، كالحديد ، والرصاص ، والنحاس ، ونحو ذلك كما يطلق أيضا على الماء الغليظ كدردي الزيت أى : ما نكسر منه . وقيل . هو نوع من القطران أو السم .

والمرتفق : المتكأ ، من الارتفاق وهو الالتصاق على مرفق اليد .

أى : أن هؤلاء الكافرين ، لن يطلبوا الغوث عما هم فيه من كرب وعطش ، يغاثوا بماء كالمهل في شدة حرارته وبقته وسواده وهذا الماء يشوي الوجوه ، أى : يحرقها . . .

« بئس الشراب » ، ذلك الماء الذى يغاثون به وساءت النار منزلا ينزلون به ، ومتكأ يتكئون عليه .

فألاية الكريمة تصور ما ينزل هؤلاء الظالمين من عذاب ، تصويرا نرجف من هول الأبدان ، ويدخل الرعب والفرع على النفوس .

قال بمضمونهم : فإن قيل ، أى لغائته لهم فى ماء كالمهل مع أنه من أشد العذاب ، وكيف قال - سبحانه - ، « يغاثوا بماء كالمهل » ؟

فالجواب ، أن هذا من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن وتظيره من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب

وحيل قد دلفت لها بحيل تحية بينهم ضرب وجميع

أى : لا نعمة لهم إلا الضرب الجميع وإذا كان هؤلاء الظالمون لا يغاثون إلا بماء كالمهل : علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم مطلقا ، (١) .

والمنصوص بالذم في قوله : « يشربون شرابا وسامتا مرفقا ، محذوف ، يشربون شرابا ذلك الماء الذي يغاثون به ، وسامتا النار مكانا للاتفاق والانسكاه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حسن عاقبة المؤمنين فقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، .

أى : إن الذين آمنوا بإيماننا حقا ، وقدموا في دنياهم الأعمال الصالحات ، اقتضت سنتنا التي لا تتغير ولا تقبل أن نرضى عنهم ، وأن ندخلهم مدخلا كريما ، لا ننا لا نضيع أجر من أحسن عملا .

ثم بين - سبحانه - ما أعد له هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ألوان النعيم فقال : « أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ، .

ولفظ « عدن » بمعنى إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول . وأصله من عدن فلان بالمسكان . إذ أقام به واستقر فيه .

أى : أولئك الذين عمروا دنياهم بالإيمان والعمل الصالح لهم جنات يقيمون فيها إقامة دائمة ، تجري من تحت مساكنهم الأنهار .

« يحلون فيها من أساور من ذهب ، والأساور : جمع سوار . وهو نوع من الخلي يلبس بزند اليد .

أى : يلبسون في تلك الجنات أساور من ذهب على سبيل التزين والتكريم ولا مانع من أن يضاف إلى هذه الأساور الذهبية ، أساور أخرى من فضة ، وثالثة من أولئك في قوله - تعالى - : « وحلوا أساور من فضة ، (٢) .

(١) تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ٩٦

(٢) سورة المدهر الآية ٢١

وقوله - سبحانه - : « يحلون فيها من أساور من ذهب وأواوا .. » (١).
وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قال :
« تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » .

وقوله « ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق » ، معطوف على ما قبله .
والسندس : مارق من الحرير واحده سندسة .
والإستبرق : ما غلظ منه وثخن ، واحده إستبرقة .

أى : يتزينون فى الجنات بأساور من ذهب ، ويلبسون فيها ثيابا خضرا
من رقيق الحرير ومن عليظه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب
وحسنت مرفقا » .

والأرائك : جمع أريكة . وهو كل ما يتكأ عليه من سرير أو فراش ،
أى : متكئين فى الجنات على الأرائك شأن المتنعمين المترفين ، نعم الثواب ،
ذلك الذى وعدهم الله - تعالى - به وهو الجنة ، وحسنت ، تلك الأرائك فى
الجنات مرفقا ، .

أى : متكأ ومقرا ومجلسا ومسكنا .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد اشتملت على ألوان متعددة من التكريم
والتواب لأولئك المؤمنين الذين عمروا دنياهم بالعمل الصالح .

فقد بشرهم - سبحانه - بجنات عدن ، ثم بشرهم ثانيا بأن الأنهار تجري
من تحتهم ثم بشرهم ثالثا بأنهم يحلون فيها من أساور من ذهب ، ثم بشرهم
رابعا بأنهم يلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ، ثم بشرهم خامسا ،
بأنهم يتكئون فى تلك الجنات على الأرائك .

وفي هذه البشارات ما فيها من الحضر على المسارعة إلى العمل الصالح ،
الذى يرفع درجات المؤمن إلى أعلى عليين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،
والله ذو الفضل العظيم ، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا هذا الفضل ، فهو
أكرم مسئول ، وأعظم مأول .

ثم سافت السورة الكريمة مثلاً للنفس الإنسانية المفرورة المتفاخرة
بزينة الحياة الدنيا ، الجاحدة لنعم الله ... وللنفس الإنسانية المتواضعة ،
المهترزة بعقيدتها السليمة ، الشاكرة لربها ... لكي يكرن في هذا المثل عبرة
وعظة لمن كان له قلب ، فقال - تعالى - :

« واضربْ لَهُمْ مثلاً رجلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ،
وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كَلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا
وَلَمْ تَعْظَمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
إِصْحَابِهِ هُوَ يُحَاورُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ
جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَنْ رُدُّدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) » .

والمثل في اللغة : الشبيه والظهير ، وهو في عرف القرآن الكريم : الكلام
البلغ المشتمل على تشبيه بديع .

وضرب المثل : إirاده ، وعبر عن إirاده بالضرب ، لشدة ما يحدث عنه
من التأثير في نفس السامع .

أى : واضرب - أيها الرسول الكريم - مثلاً للمؤمنين الذين يدهون
رهبهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وللكافرين الذين غرهم الحياة الدنيا ،
ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة .

قال الآلوسى والمراد بالرجلين : إما رجلان مقدران على ما قبل وضرب المثل لا يقتضى وجودهما . وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه . قيل هما رجلان من بنى إسرائيل أحدهما كافر ... والآخر مؤمن .

ثم قال : والمراد ضربهما مثلاً للفریقین المؤمنین والكافرين ، لا من حيث أحولهما المستفادة بما ذكر آنفاً ، من أن المؤمنين فى الآخرة كذا ، وللكافرين فيها كذا ، من حيث قصيان الكفرة مع قلوبهم فى نعم الله ، وطاعة المؤمنين مع مكابدهم مشاق الفقر ، (١) .

أى : واضرب لهم مثلاً من حيثية العصبان مع النعمة ، والطاعة مع الفقر ، حال رجلين : جعلنا لأحدهما ، وهو الكافر «جنة» ، أى : بستانين ، ولم يعين - سبحانه - مكانهما ، لأنه لم يتعلق بهذا التعمين غرض .

ثم بين ما اشتملت عليه هاتان الجنةان من خيرات فقال : « من أعناب ، جمع عقب ، والعنبة الحبة منه . والمراد : من كروم متنوعة .

وقوله : « وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً » ، بيان لما أضيف إلى الجنةين من مناظر تزيدهما بهجة وفائدة .

والخف بالشئ : الإحاطة به . يقال : فلان حففه القوم ، أى : أحاطوا به ، ومنه قوله - تعالى - : « ونرى الملائكة حافين من حول العرش . . . »

أى : جعلنا لأحد الرجلين ، وهو الكافر منهما جنتين من أعناب ، وأحطناهما بنخل ليكون كالخاية النافعة لهما ، وجعلنا فى وسطهما زرعاً وبذلك تكون الجنةان جاءعتين للأفوات والفواكه ، مشتملين على ما من شأنه أن يشرح الصدر ، ويقيد الناس .

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد من جودة الجنةين . ومن غزارة خيرهما فقال : « وكلتا الجنةين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وجفرنا خلالها نهراً » .

أر : أن كل واحدة من الجنة ، آتت أكلها ، أي : أعطت ثمارها التي يأكلها الناس من العنب والتفاح وغيرهما من صنوف الزرع ، ولم تظلم منه شيئا ، ولم تنقص من هذا المأكول شيئا في سائر السنين ، بل كان أكل كل واحدة منهما وافيا كثيرا في كل سنة ، على خلاف ما جرت به عادة البساتين ، فإنها في الغالب تنكثر ثمارها في أحد الأعوام ونقل في عام آخر .

وفي التعبير بكلمة : تظلم ، بمعنى تنقص وتمنع ، مقابلة بديعة لحال صاحبهما الذي ظلم نفسه بجهوده لنعم الله - تعالى - ولإستكباره في الأرض .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنةين بما يدل على جمال منظرهما ، وغزارة عطايتهما ، وكثرة خيراتها ، وإشتغالها على ما يزيدهما بهجة ومنفعة . .

ثم بين - سبحانه - أن صاحب هاتين الجنةين كانت له أموال أخرى غيرهما فقال : : وكان له نمر . . .

قال الألوسي ما ملخصه : : وكان له ، أي : للأحد المذكور وهو صاحب الجنةين ، نمر ، أي أنواع أخرى من المال . . . وقرأ ابن عامر وحمة والكسائي . . . نمر ، بهضم التاء والميم . ، وهو جمع نمر - بكسر التاء . . . أي : أموال كثيرة من الذهب والفضة والحبوان وغير ذلك ، وبذلك فسرهم ابن عباس وقتادة وغيرهما . . . (١)

وقوله - سبحانه - : فقَالَ لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، حكايه لما تفوه به هذا الكافر من ألفاظ تدل على غروره وبطوره .

والمحاورة : المراجعة للكلام من جانبين أو أكثر . يقال : محاور القوم ،

إذا تراجعوا الكلام فيما بينهم . وبقال : كذبت فما أحر إلى جواباً ، أى :
مارد جواباً . . .

والنفر : من ينفر - يهضم الفاء - مع الرجل من قومه وعشيرته لقتال
عدوه .

أى : فقال صاحب الجنة لصاحبه المؤمن الشاكر : أنا أكثر منك مالاً
وأعز منك عشيرة وحشماً وأهواً .

وهذا شأن الماطموسين المغرورين ، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها . . .
بطراً وفساداً فى الأرض . . .

وما أصدق قول فتادة - رضى الله عنه - : ذلك - والله - أمنية الفاجر :
كثرة المال وعزة النفر ، ثم لا تنقل صاحب الجنة من غروره هذا إلى غرور
أشد : حكاه القرآن فى قوله : ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن
أن تبديد هذه أبداً . وما أظن الساعة ، قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن
خيراً منها منقلباً . .

أى : أن هذا الكافر لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن ، بل سار به
نحو جنته حتى دخلها وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : فلم أفرد الجنة بعبد التقيّة ؟ قلت :
معناه ودخل ما هو جنته ، ماله جنة غيرها : يعنى أنه لا نصيب له فى الجنة التى
وعدها الله للمؤمنين ، فما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد الجنة
ولا واحدة منهما .

وقوله : وهو ظالم لنفسه ، أى : وهو معجب بما أوتى مفتخر به ، كافر
لنعمته ربه ، معرض بذلك نفسه لسخط الله ، وهو أفحش الظالم . . . (١) .

وقوله : د قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً ، أى : قال هذا الكافر لصاحبه :
ما أظن أن هذه الجنة تفنى أو نهلك أبداً .

يقال : باد الشيء يبيد ويبدا ويودا ، إذا هلك وفنى .

نم ختم هذا الكافر محاورته لصاحبه بقوله : د وما أظن الساعة قائمة .
أى : كائنة ومتحققة . فهو قد أنكر اليعث وما يترتب عليه من حساب بعد
إنكاره لغناء جنته ثم أكد كلامه بجملة قسمية فقال : د ولئن رددت إلى ربى ،
أى : والله لئن رددت إلى ربى على سبيل الفرض والتقدير كما أخبرنى يا صاحبي
بأن هناك بعثاً وحساباً لا أجدن خيراً منها ، أى : من هذه الجنة د منقلباً ،
أى : مرجماً وعاقبه . امم مكان من الانقلاب بمعنى الرجوع والانصراف
عن الشيء إلى غيره .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : د أفرايت الذى كفر بآياتنا وقال
لأوتين مالا وولداً ، .

وقوله - سبحانه - : د وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن
بمعذبين ، .

والمتدبر لحال صاحب الجنة يراه ، - أولاً - قد زعم أن مدار التفاضل
هو الثروة والعشيرة ، ويراها - ثانياً - قد بنى حياته على الغرور والبطور ،
واعتقاد الخلود لزينة الحياة الدنيا . ويراها - ثالثاً - قد أنكر البعث والحساب ،
والعقاب والمقاب .

ويراه - رابعاً - قد نوى أن غناه فى الدنيا سيكون معه مثله فى الآخرة :

قال صاحب الكشف : وأخبر عن نفسه بالشك فى بيدودة الجنة ، لطول
أمله ، واستيلاء الخرص عليه ، وتمادى غفلته ، وإغتراره بالمهمة ، وإطراحه
النظر فى عواقب أمثاله ، وترك أكثر الأغنياء من المسلمين ، وإن لم يطلقوا
يمثل هذا ألسنتهم ، فإن السنة أحوالهم ناصقة به ، منادية عليه .

وأقسم على أنه إن رد إلى ربه - على سبيل القرض والتقدير - أيجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا ، تطمعا وتمنيا على الله . . (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله الرجل المؤمن لصاحب الجنتين ، الذى نطق بأخش ، وأجر الفجور ، فقال - تعالى - .

« قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) » .

أى : قال الرجل الفقير المؤمن ، فى رده على صاحبه الجاحد المغرور ، منكرا عليه كفره قال له على سبيل المحاوره والمجاوبه : يا هذا وأكفرت ، بالله الذى ، خلقك ، بقدرته د من تراب ، .

أى : خالق أباك الأول من تراب ، كما قال : : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، (٢) .

د ثم من نطفة ، أى : خلق أباك آدم من تراب ، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى .

د ثم سواك رجلا ، أى : ثم صيرك إنسانا كاملا د ذا صورة جميلة ، وهیئة حسنة . كما قال - سبحانه - : : لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٨٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٨

: والاستغفم - ام في قوله : : اكفرت . . . الإنكار والاستبعاد ، لأن خلق الله - تعالى - له من تراب أم من نقطة ، ثم تسويته إياه رجلاً ، يقتضى منه الإيمان بهذا الخالق العظيم ، وإخلاص العبادة له ، وشكره على نعمائه .

قالوا : ولا يستلزم قول صاحب الجنة قبل ذلك : : ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ، .

لأنه كان مؤمناً ، لأنه قال ذلك على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الاعتقاد واليقين ، بدليل ترده في إمكان قيام الساعة ، ولأن اعترافه بوجود الله - تعالى - لا يستلزم الإيمان الحق ، فالكفار كانوا يمتدحون بأن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، ومع هذا يشركون معه في العبادة آلهة أخرى .

وجاء التعبير بحرف « ثم » في الآية ، للإشارة إلى أطوار خلق الإنسان التي فصلها - سبحانه - في آيات أخرى ، منها قوله - تعالى - : : ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، (١) .

ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح ، فيقول لصاحبه صاحب الجنة : : لسكننا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحداً . .

أى : إن كنت أنت با هذا قد كفرت بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ، فإنى لست بكافر ، وسكنى أنا مؤمن ، اعترف له بالعبادة وطاعة وأقول : هو الله - تعالى - وحده ربى ، ولا أشرك معه أحداً من خلقه لا فى الربوبية ، ولا فى الألوهية ، ولا فى الذات ولا فى الصفات .

وقوله - سبحانه - في هذه الآية : **لكننا . . .** ، أصله : **لكن أنا ، أى :**
لكن أنا أقول هو الله ربى . فحذفت همزة ، أنا ، وأدغمت نون **لكن** ، في
 نون ، نا ، بعد حذف الهمزة .

وجهور القراء يقرءون في الوصل **لكن** ، بدون ألف بعد النون المشددة
 وقرأ أبو عامر في الوصل **لكننا** ، بالألف . أما في حالة الوقف فقد إتفق
 الجميع على إثبات الألف .

قال صاحب الكشف : قوله : **لكننا هو الله ربى** ، أصله : **لكن أنا** ، فحذفت
 الهمزة ، وألقيت حركتها على نون **لكن** ، ففلاقت النون فان فـكان الإدغام
 وبحوه قول القائل :

وترمينى بالطرف أى أنت مذنب وتقلبنى ، **لكن إياك لا أقل**
 أى : **لكن أنا لا أقلبك .**

و هو ، ضمير الشأن : **أى : والشأن أن الله ربى : والجملة خبر أنا .** والراجع
 منها إليه بام الضمير .

فإن قلت : هو إستدراك لماذا ؟ قلت : لقوله **أكفرت . .** ، قال لأخيه
 أنت كافر بالله ، لكنى مؤمن موحد ، كما تقول : زيد غائب **لكن** عمرا
 حاضر ، (و)

ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته . فقال :
« ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله . . . »

فإن الامام ابن كثير : هذا تحضيض وحث على ذلك . **أى : هلا إذ أعجبتك**
جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك
من المال والولد ما لم يعط غيرك ، وقلت : **« ما شاء الله لا قوة إلا بالله »** ، ولهذا
 قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله ، فليقل : ما شاء

الله لا قوة إلا بالله . . وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة . وقد روى فيه حديث مرفوع . . . فحدث أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دوى الموت (١) .

وقال الآلوسی : وقوله : « ما شاء الله ، أى : الأمر ما شاء الله ، أو ما شاء الله - تعالى - ، كأن ، على أن ، ما ، موصولة مرفوعة المحل . إما على أنها خبر مبتدأ محذوف . أو على أنها مبتدأ محذوف الخبر . . . وأيما كان فالمراد تحضبه على الاعتراف بأن جنته وما فيها بمشيئة الله - تعالى - إن شاء أبواقها وإن شاء أبادها ، (٢) .

وبعد أن حضه على الشكر لله - تعالى - . رد على افتخاره وغروره بقوله - كما حكى القرآن عنه - : « إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك .

أى : إن ترنى - أيها المغرور - أنا أقل منك في المال والولد . فإنى أرجو الله الذى لا يعجزه شئ ، أن يرزقنى ما هو خير من جنتك في الدنيا والآخرة . « ويرسل عليها حسباناً من السماء » أى : عذاباً من جهة السماء كالصواعق والسموم وغيرها مما يشاء الله - تعالى - لإرساله عليهم من الملائكة التى تنذرهم قاعاً صافصفاً .

قال صاحب الكشف : والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب . أى : ويرسل عليها مقداراً قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها . « فتصبح » بعد اخضرارها وانضارتها « صعيداً » أى : أرضاً ذلقاءً أى : جرداء ملساء لا نبات فيها ، ولا يثبت عليها قدم .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٥٤ .

(٢) تفسير الآلوسی ج ١٥ ص ٢٧٩ .

و المراد أنها نصير عبدة النفع من كل شيء حتى من المشي عليها . يقال : مكان زلق ، أى : دحض ، وهو فى الأصل مصدر زلقت رجلك تزلق زلقا ، ومعناه : الزل فى المشى لوجل ونحوه ،

• أو يصبح ماؤها غورا ، أى : غائرا ذاهبا فى الأرض . فالغور مصدر وصف به على سبيل المبالغة وهو بمعنى الفاعل . يقال : غار الماء يغرر غورا : أى : سفل فى الأرض وذهب فيها .

ومنه قوله - تعالى - : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ، فن باتيكم بماء

م من » .

• فلن تستطيع نه طلبا ، أى : فلن تستطيع أن تحصل عليه أو تطلبه بأية حيلة من الحيل . لأنه لا يقدر على الاثبات بهذا الماء الغائر إلا الله - عز وجل - .

وإلى هنا نجد أن الرجل المؤمن قد رد على صاحبه الكافر ، بما يذكره بعينه . وبما يرجعه إلى الأدب الذى يجب أن يتحلى به مع خالقه ورازقه ، وبما يحذره من سوء عاقبة بطره .

• وهكذا الإيمان الحق ، يجعل المؤمن يعتر بهقيدته ، ويتوجه إلى الله وحده الذى تعثر له الجباه ، ويرجر منه وحده ما هو خير من بساين الدنيا وزينتها . ثم يختم - سبحانه - هذه القصة ببيان العاقبة السيئة التى حلت بذلك الرجل الجاحد المفلور صاحب الحنتين فيقول .

« وَأَحْبَطَ بِشَمَرِهِ ، فَأَصْبَحَ يُقَابُ كَفْبُهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) » .

وقوله - سبحانه - : « وأحيط بشمره ، مطوف على قدر عذوب
لدلالة السياق والسباق عليه .

وأصل الإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو بعدوه من جميع جوانبه
لإهلاكه وإستئصاله .

والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال الحسابان على بستان
صاحبه الجاحد المغرور ، وأحيط بشمره بأن هلك أمواله وثماره كلها .
وجاء الفعل « أحيط » مبنيا للمجهول ، الإشهار بأن فاعله متيقن وهو
العذاب الذى أرسله الله - تعالى - أى : وأحاط العذاب بجمته .

وقوله : « فأصبح يقاب كفيه على ما أنفق فيها » ، تصوير بديع لما لعقراء
من غم وهم وحسرة وندامة . ونقاب اليمين عبارة عن ضرب لإحداهما على
الأخرى ، أو يبدى ظهرهما ثم بطنهما ويفعل ذلك مرارا ، وأيا ما كان ففعله
هذا كناية عن الحسرة الشديدة ، والندم العظيم .

أى : وكانت نتيجة جحود صاحب الجنة لشمره ، أن أهلك أمواله
وأبديت كلها . فصار يقاب كفيه ظهرا لبطن أسفا وندما ، على ما أنفق فى عمارتها
وتزيينها من أموال كثيرة ضاعت هباء ، ومن جهد كبير ذهب سدى .

وهى ، أى الجنة التى أنفق فيها ما أنفق « خاوية على عروشها » ، أى :
ساقطة ومهدمة على دعائما وعلى سقوفها .

وأصل الخواء السقوط والتهدم . يقال : خوى البيت إذا سقط . كما يطلق
على الخلاء من الشيء . يقال : خوى بطن فلان من الطعام أى : خلا منه ،
وخوت الدار إذا خلت من سكانها .

والعروش جمع عرش ، وهو سقف البيت .
والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه ، صارت حطاما وهشما تذروه

الرياح ،

وجملة : « وبقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا ، مطبوعة على جملة » يقلب كفيه .. ،

أى : صار يقلب كفيه حسرة وندامة لهلاك جنته ويقول زيادة في الحسرة والندامة : يا ليتني لم تبع نصيحة صاحبي فلم أشرك مع ربي - سبحانه - أحدا في العبادة أو الطاعة .

وهكذا حال أكثر الناس ، يذكرون الله - تعالى - عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والعافية .

والمندبر لهذه الآية الكريمه يراها قد صورت فجعة الرجل الخاكد في جنته تصويرا واقعا بديعا

فقد جرت عادة الإنسان أنه إذا نزل به ما يدهشه ويؤلمه .. أن يهجز عن النطق في أول وهله . فإذا ما أفاق من دعثته بدأ في النطق والكلام .

وهذا ما حدث من ذلك الرجل - كما صورته "قرآن الكريم" - فإنه - عند ما رأى جنته وقد تحطمت أخذ يقاب كفيه حسرة وندامة دون أن ينطق ، ثم بعد أن أفاق من صدمته جعل يقول : يا ليتني لم أشرك بربي أحدا .

فباله من تصوير بديع ، يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان عظيم قدرته ونفاذ إرادته فقال :

« ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا »

أى : ولم تكن لهذا الجاحد المفرور بعد أن خوت جنته على عروشها ، عشيرة أو أعوان ينصرونه ، أو يدفعون عنه ما حل به ، وإنما الله - ادر على ذلك هو الله - تعالى - وحده وما كان هذا الرجل الذى جحد نعم ربه منتصرا لأنه - سبحانه - قد حجب عنه كل وسيلة تؤدى إلى نصره وعونه ، بسبب إشاره القى على الرشد ، والكفر على الإيمان .

فالآية السكرية تبين بجلاء ووضوح ، عجز كل قوة عن نصرة ذلك الرجل المخدول سوى قوة الله - عز وجل - ، وعجز ذلك الرجل في نفسه عن رد إقتحام الله - تعالى - منه .

وقوله - سبحانه - : « هذالك الولاية لله الحق . . . » تقرير وتأكيد للآية السابقة . ولفظ هذالك ظرف مكان .

وكلمة « الولاية » قرأها الجمهور بفتح الواو ، بمعنى المwalاة والصلة والنصرة كما قرأ الجمهور كلمة « الحق » بالجر على أنها نعت للفظ الجلالة .

فيكون المعنى : في ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية - أى المwalاة و'صلة - من كل الناس ، لله - تعالى - وحده إذ الكافر عند ما يرى العذاب يعترف برحمانية الله - تعالى - كما قال - سبحانه - « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفهم لإيمانهم لمسا رأوا بأسنا » ، (١)

ويجوز أن يكون المعنى : في ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية أى المwalاة لله - تعالى - وحده ، فيوالى المؤمنون برحمته ومغفرته وينصرمون على أعدائهم ، كما قال - سبحانه - « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم » ، (٢)

وقرأ حمزة والكسائي : « الولاية » بكسر الواو ، بمعنى الملك والسلطان كما قرأ أبو عمرو والكسائي لفظ « الحق » بالرفع على أنه نعت للولاية

فيكون المعنى : في ذلك المقام تكون الولاية الحق ، والسلطان الحق ، لله رب العالمين ، كما قال - سبحانه - : « الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا » ، (٣)

(٢) سورة محمد الآية ١١

(١) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٢٦

قال بعض العلماء : وقوله « هنالك » يرى بعضهم أنها متعلق بما بعده ،
والوقف تام على قوله « وما كان منتصرا » .

ويرى آخرون أنه متعلق بما قبله .

فعلى القول الأول يكون الظرف « هنالك » عامله ما بعده . أى : الولاية
كائنة لله هنالك .

وعلى القول الثانى فالعامل فى الظرف اسم الفاعل الذى هو « منتصرا » .
أى : لم يكن لانتصاره واقعا هنالك (١)

وقوله « سبحانه » : هو خير ثوابا وخير عقبا ، أى : هو - عز وجل -
خير إثابة وإعطاء لأولياته ، وخير عاقبة لمن تاب وآمن وعمل صالحا
ثم اهتدى .

وعاقبة الأمر : آخره وما يصير إليه منها . و « ثوابا » و « عقبا »
منصوبان على التمييز ، بعد صيغة التفضيل « خير » ، التى حذف منها الهمزة
تخفيفا لكثرة الاستعمال كما قال ابن مالك - رحمه الله - :

وغالبا أغنام خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

وبذلك نرى أن هذه القصة التى ضربها - تعالى - مثلا للأحيار والأشجار
قد بينت لنا بأسلوب بليغ أخاذ ، صور عاقبة الجاحدين المفلتة وحسن
عاقبة الشاكرين المتواضعين ، كما بينت لنا الآثار الطيبة التى تقرب على الإيمان
والعمل الصالح ، والآثار السيئة التى يقضى إليها المكفر وسوء العمل كما بينت
لنا المنفرد بالولاية والقدرة هو الله - عز وجل - ، فلا قوة إلا توتة ، ولا
نصر إلا نصرة ، ولا مستحق للعبادة أحد سواه ، ولا ثواب أفضل من ثوابه
ولا عاقبة لأولياته خير من العاقبة التى يقدرها لهم ، وصدق - سبحانه - حيث
يقول : « هنالك الولاية لله الحق » ، هو خير ثوابا وخير عقبا .

ثم تنتقل السورة المكرمة من ضرب المثل الجزئى الشخصى ، إلى ضرب

مقال آخر عام كلّي ، فبينت أن الحياة الدنيا في قصرها ، وذهاب زينتها
 كذلك الجنة التي أصبحت حطاما ، بعد إخصرارها وكثرة ثمرها ، كما بينت أن
 هناك زينة فانية ، وأن هنالك أعمالا صالحة باقية . قال - تعالى - :

« وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
 نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ
 الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) » .

قال الإمام الرازي : اعلم أن المقصود : اضرب لهم مثلا آخر يدل على
 حقارة الدنيا ، وقلة بقائها . والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين
 المتكبرين على فقراء المؤمنين (١)

والمعنى . واذكر لهم - أيها الرسول الكريم - ما يشبه هذه الحياة الدنيا
 في حسننها ونضارتها ، ثم في مزرعة زوال هذا الحسن والنضارة ، لكي لا يركنوا
 إليها ، ولا ينجعلوها أكبر همهم ، وممتنى آمالهم . . .

وقوله : « كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ . . » بيان المثل الذي شبه الله - تعالى -
 به الحياة الدنيا أي : مثلها في ازدهارها ثم في زوال هذا الازدهار ، كهيئة أو
 كصفة ماء أنزلناه بقدرتنا من السماء ، في الوقت الذي تريد إنزاله فية :
 « فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، وَالْإِخْتِلَاطُ وَالْخِلَاطُ : امتزاج شيئين فأكثر
 بهما ببعض .

أي : كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ وَامْتَزَجَ بِهِذَا الْمَاءِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ،
 فَارْتَوَى مِنْهُ ، وَحَارَ قُوْنَا بِهِمْجَا يَعْجَبُ النَّاطِرِينَ لِأَيِّهِ .

وفي التعبير بغيره : « فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ » ، ذوق فؤاد : فَاخْتَلَطَ بِنَبَاتِ

إشارة إلى كثرة الماء النازل من السماء ، وإلى أنه السبب الاساسى فى ظهور هذا النبات ، وفى بلوغه قوته ونضارته .

وقوله : « فأصبح هشيا تذروه الرياح » ، بيان لما صار إليه هذا النبات من يبوسته وتفتته ، بعد إخضراره وشده وحسنه .

قال القرطبى ما ملخصه : « هشيا ، أى متكسرا متفتتا ، يعنى بافتقاع الماء عنه ، فحذف ذلك إيجازا للدلالة الكلام عليه . والحشيم : كسر النى . اليابس . والحشيم من النبات : اليابس المتكسر . . . ورجل هشيم : ضعيف البدن .

و « تذروه الرياح » ، أى تفرقه وتنفسه . . . يقال : ذرت الريح الشئ . تذروه ذروا ، إذا طارت به وأذهته ، (١) .

أى : فأصبح النبات بعد إخضراره ، يابسا متفتتا ، تفرقه الرياح وتنفسه وتذهب به حيث شاءت وكيف شاءت

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد شبت حال الدنيا فى حسنها وجمال رونقها ، ثم سرعة زوالها وفنائها بعد ذلك ، بحال النبات الذى نزل عليه الماء فاخضر واستوى على ساقه ، ثم صار بعد ذلك يابسا متفتتا تذهب به الرياح حيث شاءت .

والتعبير بالماء فى قوله - سبحانه - « فاخضاه فأصبح . . » ، يزيد الأسلوب القرآنى جمالا وبلاغة ، لأن ماء التعقيب هنا تدل على قصر المدة التى استمر فيها النبات نضرا جميلا ، ثم صار هشيا تذروه الرياح .

وهكذا الحياة تبدل للمتعلقين بها ، جميلة عزيزة ، ولكنها سرعان ما تفارقهم ويفارقونها ، حيث ينزل بهم الموت فيجعل آمالهم تحت التراب .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ، « وكان الله على كل شئ مقتدرا ، أى :

وكان الله - تعالى - وما زال - على كل شيء من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء ؛ كامل القدرة ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

وقد ذكر - سبحانه - ما يشبه هذه الآية في سور كثيرة ، ومن ذلك قوله تعالى - : إنا مثل الحياة لدينا كمال أنعامنا من السماء فاختلط به نبات الأرض بما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أناهما أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها - صيدا كأن لم تكن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ، (١)

ثم بين - سبحانه - القيمة الحقيقية للمال والبنين فقال : المال والبنون [زينة الحياة الدنيا] .

والمال : اسم لكل ما يتموله الإنسان ويتملكه من النقود والعقار والحرف والأنعام ... الخ والبنون : جمع ابن .

والزينة : مصدر . والمراد بها هنا ، ما في الشيء من محاسن ترغب الإنسان فيه .

أى : المال والبنون زينة يتزين بها الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، ويتباهى بها على غيره .

ولإنما كانا كذلك ، لأن في المال - كما يقول القرطبي - جمالا ونفعا ، وفي البنين قوة ودفعا ...

قال الألوسي : وتقديم المال على البنين - مع كونهم أعز ماله عند أكثر الناس لعراقته فيما يبط به من الزينة والامداد وغير ذلك . . ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بغير مال فهو في أضيق حال . . (٢) وفي التعبير بقوله - سبحانه - زينة ، بيان بدع . وتعبير دقيق لحقيقتهما ،

(١) - سورة يونس الآية ٢٤

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٢٨٦

فهما زينة وليسا قيمة ، فلا يصح أن توزن بهما أقدار الناس ، وإنما فوزن
أقدار الناس بالايمان والعمل الصالح ، كما قال - تعالى - « إن أكرمكم عند
الله أتقاكم ... »

ولذا جاء التعقيب منه - سبحانه - بقوله ، « والباقيات الصالحات خير
عند ربك ثوابا وخير أملا ، » .

أى : المال والبنون زينة يترن ويتفاخر بها كثير من الناس في هذه الحياة
الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك في عرف كثير منهم . فإن الأقوال الطيبة ،
والأعمال الحسنة ، هي الباقيات الصالحات ، التى تبقى ثمارها للإنسان ، وتكون
عند الله - تعالى - « خير ، » من الأموال والأولاد « ثوابا ، » وجزاء وأجرا
« وخير أملا . » حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله ويرجوه فى
فى الدنيا من فوز بنعيم الجنة ، أما المال والبنون فمكبر عما يكونان فنة . .

وقد ساق الامام ابن كثير جملة من الآثار فى تعيين المراد بالباقيات
الصالحات فقال : قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف :
والباقيات الصالحات ، : الصلوات الخمس .

وقال عطاء بن أبى رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس : « والباقيات
الصالحات ، : سبحانه الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ... » (١) .

ويبدو لنا أن قوله - تعالى - : « والباقيات الصالحات ، » لفظ عام ، يشمل
كل قول ، أو عمل يرضى الله - عز وجل - . ويدخل فى ذلك دخولا أوليا :
الصلوات الخمس وغيرها مما ذكره المفسرون من أقوال .

وسمى - سبحانه - ما يرضيه . من أقول ، وأعمال بالباقيات الصالحات
لأنها باقية لصاحبها غير زائلة ولا فانية ، بخلاف زينة الحياة الدنيا فإنها زائلة
قانية . .

قال الامام ابن جرير - رحمه الله - وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : من جمع أعمال الخير . . لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة ، وعليها يجازى ويناب . وإن الله - عز وجل - لم يخص من قوله « والباقيات الصالحات خير . . » بعضاً دين بعض في كتاب ، ولا يحجج عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (١)

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أهوال يوم القيامة ، وذلك اليوم الذي تنفع فيه الباقيات الصالحات ، وليس الأموال ولا الأولاد ، فقال - تعالى - :

« وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاكُمْ فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ، لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّ لَنَا نَجْمًا لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوَضَعَ الْكِتَابُ قُتْرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ثُمَّ فِيهِدُ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَمِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُخْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا . وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) » .

والظرف في قوله :- تعالى - ، ويوم نسير الجبال ، منصوب بفعل محذوف تقديره : « اذكر » .

والمراد بـ « يسير الجبال » : اقتلاعها من أماكنها ، وضيرورتها كالمهن المنفوش .

أي : « اذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، أهوال يوم القيامة ، يوم

تقتلع الجبال من أماكنها ، وتذهب بها حيث شئنا ، ونجعلها في الجو كالسحاب ، كما قال - سبحانه - : وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ... ،

وكما قال - عز وجل - : وسيرت الجبال فكانت سرابا .
وقوله : وترى الأرض بارزة .. ، بيان لحالة ثانية من أهوال يوم القيامة .

أى : وترى - أيها المخاطب - الأرض ظاهرة الاعمى دون أن يسترها شئ من جبل ، أو شجر ، أو بنيان .

يقال : برز الشئ بروزا ، أى : خرج إلى البراز - بفتح الباء - أى : الفضاء - وظهر بعد الخفاء .

قال - تعالى - : فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة .

ثم بين - سبحانه - حالة ثالثة من أهوال يوم القيامة فقال : وحشرناهم فلم تغادر منهم أحدا .

أى : وحشرنا الخلائق جميعا ، بأن جمعناهم في المكان المحدد لجمعهم ، دون أن نترك منهم أحدا ، بل أخرجناهم جميعا من قبورهم لنحاسبهم على أعمالهم .
والفعل « تغادر » من المغادرة بمعنى الترك ، ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء والأمانة وسمى الغدير من الماء غدبرا . لأن السبل ذهب وتركه .

ثم تذكر السورة الكريمة حالة رابعة من أهوال يوم القيامة ، هي حالة العرض بعد حالة الجمع فتقول : وعرضوا على ربك صفا

أى : وأحضروا جميعا إلى ربك مصفوفين في صف واحد أو في صفوف متعددة ، ليقتضى فيهم - سبحانه - بقضائه العادل .

قال الألوسي : أخرج ابن منده في التوحيد عن معاذ بن جبل ، أن النبي

- صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله - تعالى - ينادى يوم القيامة ، يا عبادى : أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين . وأسرع الخاسرين . أحضروا حجتكم ، ويسروا جوابكم . فإنكم مسئولون محاسبون يا ملائكة أقيموا عبادى صفوفًا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب .

وفى الحديث الصحيح : يجمع الله - تعالى - الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفًا يسمعونهم ، وينفذهم البصر (١) .

وقوله - سبحانه - : « لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة . . . » مقول أقول محذوف ، وجمله « كما خلقناكم » نعمت لمصدر محذوف .

والمعنى : ونقول لمنكرى البعث والحساب بعد عرضهم علينا على سبيل التوبيخ والتأنيب : لقد جئتمونا - أيها المكذبون - بجيئة كانتنا كجيتكم عند خلقنا إياكم أول مرة . أى حفاة عراة لا مال معكم ولا ولد .

وعبر - سبحانه - بالماضى فى قوله : « لقد جئتمونا . . » ، لتحقيق الوقوع وتنزيله منزلة الواقع بالفعل .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة . وتركنتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالانتقال من توبيخهم هذا إلى توبيخ أشد وأقسى ، فقال : « بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ، »

أى : بل زعمتم أيها المكذبون بالبعث - أن لن نجعل لكم زماناً أو مكاناً نجازيكم فيه على أعمالكم ، وأنكرتم إنكاراً مصحوباً بقهيم أننا لا نبعث من يموت .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٨٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٤

قال - تعالى - : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ثم صور - سبحانه - أحوال المجرمين عندما يرون مصيرهم السيئ فقال - تعالى - : ووضع الكتاب ، ترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، . . .

والمراد بالكتاب : جنسه ، فيشمل جميع الصحف التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا .

أى : وأحضرت مصانف أعمال العباد ، ووضعت في ميزانهم ، وترى - أيها المخاطب - ، المجرمين ، كافة ، مشفقين ، خائفين ، بما فيه من جرائم وذنوب (ويقولون) على سبيل التفجع والتحسر عند معاينتهم لشغل ميزان سيئاتهم ، وخفة ميزان حسناتهم .

« يا ويلتنا ، والويللة : الهلاك وحلول الشر والقبح والحسرة ، وهو - أى لفظ الويللة - : مصدر لا فعل له من لفظه .

وهذا النداء على التشبيه بشخص يطلب إقباله .

أى : ويقولون بأسف وندامة وحسرة : يا هلاكنا أقبل فهذا أو ان إقبالك . ثم يقولون على سبيل التعجب والدهشة من دقة ما أشتمل عليه هذا الكتاب : « مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ؟

أى : أى شيء ثبت لهذا الكتاب ، حيث نراه لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها علينا ، وسجلها في صحف أعمالنا .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالكريمة بما يدل على شمول عليه . ونفاذ قدرته وكمال عدله ؛ فقال : « ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا » .

أى : ووجدوا ما عملوه فى الدنيا حاضرا ومسطورا فى صحائف أعمالهم ، ولا يظلم ربك أحدا من العباد ، وإنما يجازى كل إنسان على حسب ما يستحقه من ثواب أو عقاب كما قال - سبحانه - : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ، (١) » .

وكما قال - عز وجل - : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لده اجرا عظيما » (٢) .

قال الإمام ابن كثير وقوله : « ولا يظلم ربك أحدا ، أى : فيحكم بين عبادہ فى أعمالهم جميعا ، ولا يظلم أحدا من خلقه ، بل يغفر ويصفح ويرحم ، ويعذب من يشاء ، بقدرته وحكمته وعدله ... »

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد أخبرنا همام بن يحيى ، عن القاسم بن عبد الواحد المسكى ، عن عبد الله بن محمد ابن عقيل لأنه سمع جابر بن عبد الله يقول : بلغنى حديث عن رجل سمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاشترى بهمرا ثم شددت عليه رحلي ، فسرت إليه شهرا ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبوأب : قل له جابر على الباب ، فقال ابن عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فخرج يهأ ثوبه ، فاعتنقنى واعتنقته ، فقلت : حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى نقصاص نفسيك أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يحشر الله - عز وجل - الناس يوم القيامة ، عراة غفر لا بهنما ، أى : ليس معهم ثياب ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد ، كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق ، حتى أقصه منه ، أى : حتى أمكنه من أخذ القصاص ، وهو أن يفعل به مثل فعله ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن

يدخل الجنة ، وله عند رجل من أهل النار حق ، حتى أقصه منه ، حتى الأظمة .
قال : قلنا كيف وإنما نأني الله - عز وجل - عرافه غرلا بهما ؟ قال بالحسنات
والسيئات (١) .

وبعد أن وضح - سبحانه - من أهوال الحشر ما نخشع له النفوس ، ونهزله
القلوب ، أتبع ذلك بالنهي عن إقتخاذ إبليس وذريته أولياء ، وبيان جانب
من المصير الآليم الذي ينتظر المجرمين وشركاؤهم ، فقال - تعالى - :

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ
الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ
لَكُمْ عَدُوٌّ ، بَشَرٌ لِّلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا (٥١)
وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا
وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) » .

فقوله - سبحانه - : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا
لِإِبْلِيسَ - -) .

تذكير لبني آدم بالعداوة القديمة بين أبيهم آدم وبين إبليس وذريته ..

والمقصود بهذا التذكير تحذيرهم من وساوسه ، وحضهم على مخالفته ،
كما قال - تعالى - : (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ
لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (٢) .

والملائكة : جمع ملك . وهم - كما وصفهم الله تعالى - : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) (١) .

وآدم : اسم لأبي البشر . قيل لأنه لاسم عبراني مشتق من أدمه بمعنى التراب ،
والسجود لغة : التذلل والخضوع . وخص في الشرع بوضع الخبهة على
الأرض بقصد العبادة .

وإبليس : اسم مشتق من الإبلّاس ، وهو الحزن الناشئ من شدة اليأس
وفعله أبليس ، والراجح أن : اسم أعجمي . ومنعته من الصرف للعلمية والعجمية .

والمعنى . واذكر . أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن فلنا للملائكة
أسجدوا لآدم ، سجود تحية واحترام وتوقير ، لا سجود عبادة وطاعة لأن
ذلك لا يكون إلا لله رب العالمين . فامتثلوا أمرنا وسجدوا جميعاً ، كما قال
- تعالى - : (فسجد للملائكة كلهم أجمعون) .

وجاء العطف في قوله (فسجدوا) بالفاء المفيدة للتعقيب ، للإشارة إلى أن
الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد ، استجابة لأمر خالقهم - عز وجل - .

وقوله - تعالى - : (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، كونه من
الجن لا من الملائكة إذ من المقرر في علم الأصول : أن الفاء من الحروف
الدالة على التعليل ، كما في قولهم ، سرق فقطعت يده ،

أي : قطعت يده من أجل سرقة . . .

والمعنى : امتثل الملائكة جميعاً أمرنا فسجدوا لآدم ، إلا إبليس فإنه أبى
واستكبر ولم يسجد ، لأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة (ففسق عن أمر
ربه) أي . غفرج بذلك عن طاعتنا ، واستحق لعنتنا وغضبتنا .

وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة مأخوذ من قولهم : فسق الرطب فسوقاً إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر ، فيقال للعاصي فاسق ، وللكافر فاسق .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والخلاف في كون إبليس من الملائكة أولاً مشهور عند أهل العلم .

وحجة من قال إنه ليس منهم أمران : أحدهما : عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس ، فهم - كما قال الله عنهم - : (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) .

والثاني : أن الله - تعالى - صرح في هذه الآية الكريمة بأنه كان الجن والجن غير الملائكة . قالوا : وهو نص قرآني في محل النزاع .

واحتج من قال بأنه منهم ، بما تكرّر في الآيات القرآنية من قوله : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) قالوا : فإخراجه بالاستثنا . من لفظ الملائكة دليل على أنه منهم ، والظواهر إذا كثرت صارت بمنزلة النص ومن المعلوم أن الأصل في الاستثنا الانصال لا الإنقطاع . .

قالوا : ولا حجة لمن خالفنا في قوله - تعالى - (كان من الجن) ، لأن الجن قبيله من الملائكة ، خلقوا وبين الملائكة من قار السموم . .

وأظهر الحجج في المسألة . حجة من قال : إنه ليس من الملائكة ، لأن قوله - تعالى - (إلا إبليس كان من الجن . .) هو أظهر شيء في الموضوع من نصوص الوحي ، والعلم عند الله - تعالى - (١) .

ومن المفسرين الذين يدل كلامهم على أن إبليس لم يكن من الملائكة . الإمام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - قوله : (فسجدوا إلا إبليس كان من الجن) أي : غانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة

من نور ، كما ثبت في صحيح مسلم ، عن عائشة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . فعند الحاجة نضح كل إناء بما فيه ، وخانه الطبع عند الحاجة ، وذلك أنه قد توسم بأفعال الملائكة ، وتشبه بهم ، وتعبد وتذسك فلهذا دخل في خطابهم ، وخص بالمخالفة .

ونبه - تعالى - ما هنا على أنه من الجن ، أى : أنه خلق من نار ... » . ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالإتيان والتوبيخ والتعجيب من يتبع خطوات إبليس وذريته فقال : « أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا » .

أى : أفبعد أن ظهر لكم - يا بنى آدم - ما ظهر من فسوق إبليس عن أمر ربه ، تتخذونه وذريته الذين نهجوا نهجه ، أولياء ، وأصفياء من دوني ، فتطيعونهم بدل أن تطيعوني ، والحال أن إبليس وذريته لكم عدو ؟

لا شك أن من يفعل ذلك منكم يسكون قد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وآثر الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والفسوق على الإيمان !!

فالجملة الكريمة تستبعد من كل عاقل ، أن يطيع إبليس وذريته ، بعد أن تبين له عدائهم وإياه ، وحرصهم على إبقائه في موارد الهلكة والسوء ... و قوله : « وذريته ، يدل على أن لإبليس ذرية ، إلا أن الطريقة التي بواسطتها كانت له الذرية ، لم يرد بها نص صحيح يعتمد عليه ، لذا وجب تفويض علمها إلى - الله تعالى - .

قال الألوسى عند تفسيره لهذه الآية : والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد

(١) تفسير ابن كثير - ٥ ص ١٦٣ .

فتكون الآية دالة على أن له أولادا ، وبذلك قال جماعة وعن قتادة أنه قال : إنه بنكح وبنسل كما ينسل بنو آدم .

ثم قال الألوسي : ولا يلزمنا أن نفهم كيفية ولادته ، فكثير من الأشياء مجهول الكيفية عندنا ، ونقول به . . . ، (١) .

وقوله - تعالى - : «بئس للظالمين بدلا ، حكم منه - سبحانه - سوء التفكير والمصر على المتخذين لإبليس وذريته أولياء من دونه - تعالى - وبئس فعل يفيد الذم . والبديل : عن الشيء .

أي بئس للظالمين . الواضعين للشيء في غير موضعه . ما فعلوه من تركهم طاعة الله - تعالى - وأخذهم في مقابل ذلك طاعة لإبليس وذريته .

والمخصوص بالذم محذوف دل عليه المقام والتقدير : بئس البديل والاموض عن طاعة الله - تعالى - طاعة لإبليس وذريته .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وعلى عجز وجهه الله المعبودين من دونه ، فقال - تعالى - : ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم .

والضمير في قوله ، ما أشهدتهم ، يعود إلى إبليس وذريته ، والأشهاد : بمعنى الإحضار والاعلام .

أي : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، لأنى خلقتكما دون أن أستمعن في خلقهما بأحد ، أو لأنى خلقتكما قبل خلقهم ، ولا خلق أنفسهم ، أي : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، لأنى لا أستمعن بأحد حين أخلق ما أشاء ، ولا أستشير أحدا حين أقرر ما أشاء .

وما دام الأمر كذلك فكيف تتخذونهم أولياء وشركاء من دوني وأنا الخالق لكل شيء والقاهر فوق كل شيء ؟

فاجلجلة الكريمة استثناف ممدوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - ،
ولبيان عدم استحقاق إبليس وذريته للانخاذ المذكور في أنفسهم ، بعد بيان
المواقع والصوراف التي تمنع وتصرف عن اتخاذهم أو إياها ، من خبائه أصلهم ،
وفسوقهم عن أمر ربهم .

وهذا الماعى الذى صرحت به الآيه الكريمة من تفرد الله - تعالى - بالخلق
والعلم والقدرة . قد جاء فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : « هذا خلق الله
فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين » (١) .

وقوله - سبحانه - : « وما كنت متخذ المضلين عضداً ، مؤكدا لما قبله من
نفردة - سبحانه - بالخلق والقدرة والعلم .

والعضد - بفتح العين وضم الدال - فى الأصل ، يطلق على العضد المعروف
ما بين المرفق إلى الكتف . ويستعار للمعين والناصر فيقال : فلان عضدى ،
أى : نصيرى .

ومنه قوله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - « سنشد عضدك بأخيك ،
أى : سنقويك ونعينك بأخيك هارون . وذلك لأن اليد قوامها العضد ، فإذا
فقدته أصابها العجز .

أى : وما كنت متخذ المضلين عن سبيلى أعواناً وأنصاراً فى شأن من
شتونى . وخص - سبحانه - المضلين بالذكر ، زيادة فى ذمهم وتوبيخهم ،
وتقرباً لأمثالهم ، لأنه - عز وجل - ليس له أعوان ولا أنصار فيما يفعله
لا من المضلين ولا من المهتدين .

ولم يقل - سبحانه - وما كنت متخذهم .. بالإضمار ، كما قال : « ما أشهدتهم ،
بل أظهر فى مقام الإضمار ، لتسجيل الضلال عليهم ، حتى ينصرف عنهم كل
عافل ، وللتنبية على أن الضالين المضلين لا تصح الاستعانة بهم .

ولقد حكى الله - تعالى - عن نبيه موسى - عليه السلام - برأيه من
المجرمين فقال : « قال رب بما أعممت على فلان أكون ظهيراً للمجرمين ، ^(١)
والظهير : الناصر والمعين لغيره .

ثم ساقَت السورة السكينة مشهداً من مشاهد القيامة - يكشف عن سوء
المصير الذى ينتظر الشركاء و ينتظر المجرمين . فقال - تعالى - : « ويوم يقول
نادوا شركائى الذين زعمتم فدعهم فلم يستجيبوا لهم . . . » .

أى : واذكر - أيها العاقل - يوم يقول الله - تعالى - للمجرمين والكافرين
على سبيل التوبيخ والتقريع : أيها الكافرون ، نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم
ينفعدونكم ويشفعون لكم فى هذا الموقف العصيب فدعهم ، أى : فاطاعوا
أمر خالقهم ، ودعوا شركاءهم لئلا يستغيثوا بهم فلم يستجيبوا لهم ، أى :
فلم يجدوا منهم أدنى استجابة فضلاً عن النفع أو العون .

وقوله : « وجعلنا بينهم موبقاً ، أى : وجعلنا بين الداعين والمدعوين
مهلكاً يشتركون فيه جميعاً وهو جهنم .

فالموبق : اسم مكان من موبق وموبقاً - كوثب ونوبا - أو موبق وموبقاً
كفروح فرحاً - إذا هلك ، ويقال فلان أوبقته ذنوبه : أى أهلكته . ومنه
قوله - تعالى - : « أريدونهم بما كسبوا : أى يهلكون . ومنه الحديث الشريف
« كل يفتد فوبق نفسه - أى مما كسبها - ومنه أيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم -
« اجتنبوا السبع الموبقات ، أى : المهلكات .

وقيل : الموبق اسم واد فى جهنم فرق الله به بينهم ، أى بين الداعين
والمدعوين .

وقيل : كل حاجز بين شيئين فهو موبق .

قال ابن جرير - رحمه الله - بعد أن ذكر جملة من الأقوال في ذلك :
وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، "قول الذي ذكرناه أن الموبق بمعنى
المهلك وذلك أن العرب تقول في كلامها : قد أوبقت فلانا إذا أهلكته ... (١)"

ثم بين - سبحانه - حالة المجرمين عندما يبصرون النار فقال : "ورأى
المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يحدوا عنها مصرفا ،

ورأى هنا بصرية . والظن بمعنى اليقين والعلم ، لأنهم أبصروا الحقائق ،
وشاهدوا واقعهم الآليم مشاهدة لا لبس فيها ولا خفاء .

أي : وشاهد المجرمون بأعينهم النار ، فأيقنوا أنهم بخاطوها وواقعون
فيها . - يـ بـ سوء أعمالهم . ولأن كشف الحقائق أمامهم ، ولم يحدوا عنها
مصرفا : مكانا ينصرفون إليه ، ويعتصمون به . ليتخذوه ملجأ لهم منها :

فالمصرف : لهم مكان للنجاة التي ينصرف إليها الإنسان للنجاة من ضر
أحاط به .

وعبر - سبحانه - عن رؤيتهم للنار بالفعل الماضي ، لتحقيق الوقوع .

وقال - سبحانه - "ورأى المجرمون ، فوضع المظهر موضع المضمرة ،
لتسجيل الإجماع عليهم ، ولزيادة الذم لهم .

وقد ذكر - سبحانه - هنا أن المجرمين برون النار ، وذكر في آية أخرى
أنها تراهم - أيضا - قال - تعالى - : "إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها
تغيظا وزفيرا (٢)" .

وبذلك نرى الآيات السكرية قد حكمت لنا فسوق إبليس عن أمر ربه ،
وحذرتنا من إتخاذها وليا ، ومن الانقياد لوسوسته وإغرامانه ، كما حكمت لنا

(١) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ١٧٢

(٢) سورة الفرقان الآية ١٢

جانباً من أحوال المشركين وشركائهم ، وكيف أن الشركاء قد نخلوا عن عابديهم في هذا اليوم العصيب ، بعد أن أحاطت النار بالجميع ، وأيقن المجرمون أنه لا فكاك لهم منها ، ولا نجاة لهم من لهبها . .

نسأل الله - تعالى - بفضلله وكرمه أن ينجينا من هذا الموقف الرهيب .

ثم مدحت السورة الكريمة القرآن ، فوصفته بأن الله - تعالى - قد أكثر فيه من ضرب الأمثال ، ونوعها لتشمل جميع الأحوال ، وبينت سنة الله - تعالى - في الأمم السابقة ، كما بينت وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وسوء عاقبة المكذابين لهم ، ومظاهر رحمة الله - تعالى - بالناس .

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي كل هذه المعاني بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

« وَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا أَرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمَّا مَضَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يَوْأَخِذُهمْ بِمَا كَسَبُوا الْعَجَلُ لَهُمُ الْعَذَابُ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ أَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) » .

وقوله - سبحانه - : « صرفاً » من التصريف بمعنى التوزيع والتكثير .
 والمثل : هو القول الغريب السائر في الآفاق الذي يشبه مظهر به مودعه .
 وقد أكثر القرآن من ضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفي وتقريب الأمر
 المعقول من الأمر المحسوس ، وعرض الأمر الغائب في صورة الحاضر .

والمعنى : ولقد كررنا ورددنا ونوعنا في هذا القرآن من أجل هداية الناس ،
 ورعاية مصلحتهم ومنفعتهم . من كل مثل من الأمثال التي تهدي النفوس ،
 وتشفى القلوب ، ولهم بذلك يسلكون طريق الحق ، ويتركون طريق الباطل .
 فالمقصود بهذه الجملة التكريمية ، الشهادة من الله - تعالى - بأن هذا القرآن
 الذي أنزله - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فيه من الأمثال الكثيرة
 المتنوعة النافعة ، ما يرشد الناس إلى طرق الحق والخير ، متى فتحوا قلوبهم له ،
 وأعملوا عقولهم لتدبره وفهمه .

ومفعول « صرفنا » محذوف ، و « من » لا ابتداءً الغاية ، أي : ولقد صرفنا
 البينات والعبر والحكم في هذا القرآن ، من أنواع ضرب لمثل المنفعة الناس
 ليهتدوا ويذكروا ..

نعم بين - سبحانه - موقف الإنسان من هذه الأمثال فقال : « وكان
 الإنسان أكثر شئ جدلاً » .

والمراد بالإنسان : الجنس ، ويدخل فيه المكافر والفاسق دخولا أرياء .
 والجدل : الخصومة والمنازعة مع الغير في مسألة من المسائل .

أي : وكان الإنسان أكثر شئ مجادلة ومنازعة لغيره ، أي : أن جدله
 أكثر من جدل كل مجادل .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ولقد بينا للناس في هذا
 القرآن ، ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها ، كيلا يضلوا عن الحق . ومع
 هذا البيان ، فالإنسان كثير المجادلة والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله
 وبصره لطريق النجاة . .

قال الامام أحمد : حدثنا أبو اليان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري قال : أخبرني علي بن الحسين ، أن الحسين بن علي أخبره ، أن علي بن أبي طالب أخبره ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طرق عليا وفاطمة ليلة فقال : ألا تصليان ؟ فقلت يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيء . ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول وكان الانسان أكثر شيء جدلا ، (١) .

وفي التعبير عن الانسان في هذه الجملة بأنه شيء ، وأنه أكثر شيء جدلا ، إشعار لهذا الانسان بأن من الواجب عليه أن يقلل من غروره وكبريائه . وأن يشعر بأنه خلقت من مخلوقات الله الكثيرة ، وأن ينتفع بأمثال القرآن ومواعظه وهداياته ... لا أن يحادل فيها بالباطل .

ومنهم من يرى أن المراد بالانسان هنا : الكافر ، أو شخص معين قيل هو النضر بن الحارث . وقيل : أبي بن خلف . .

لكن الظاهر أن المراد به العموم - كما أشرنا - ، ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا

ثم حكى .. سبحانه - الأسباب التي منعت بعض الناس من الايمان فقال : وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم ، إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلا . .

والمراد بالناس : كفار مكرو من هذا حظهم في الشرك والضلال . والمراد بسنة الأولين : ما أنزله - سبحانه - بالأمم السابقة من عذاب بسبب إصرارها على الكفر والجحود .

والمعنى : وما منع الكفار من الايمان وقت أن جاءهم الهدى عن طريق نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ، ومن أن يستغفروا ربهم من ذنوبهم ، إلا ما سبق

في علمنا ، من أنهم لا يؤمنون ، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيهم سنة
الأولين ، أى : سنناني إلهلاكهم بدباب الاستئصال بسبب إصرارهم على كفرهم
ويجوز أن يكون الكلام عام حذير مضاف ، ودأن ، وما بعدها في قوله
« إلا أن تأتيهم » في تأويل فاعل الفعل « منع » .

والمعنى : وما منع الناس من الإيمان والاستغفار وقت مجيئ الهدى إليهم ،
إلا طلب إتيان سنة الأولين ، كأن يقولوا - كما حكى الله - تعالى - عن بعضهم :
« فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين » .

فسنة الأولين أنهم طلبوا من أنبيائهم تعجيل العذاب ، فأخذهم الله أخذ
عزيز مقتدر

وقوله : « أو يأتيهم العذاب قبلا » بيان لعذاب آخر ينتظرونه .

وكلمة « قبلا » قرأها عاصم والكسائي وحزرة - بضم القاف والباء - على
أنها جمع قبيل وهو النوع فيكون المعنى : « أو يأتيهم العذاب على صنوف وأنواع
مختلفة » ، ومن جهات متعددة يتلو بعضها بعضا .

وقرأها الباقون : « قبلا » - بكسر القاف وفتح الباء - بمعنى عيانا وهو واجهة .
والمعنى : « أو يأتيهم العذاب عيانا وجهارا » . وأصله من المقابلة ، لأن
المتقابلين يداين وبشاهد كل منهما الآخر .

وهي على القراءةين منصوبة على الحالية من العذاب .
فحاصل معنى الآية الكريمة أن هؤلاء الجاحدين لا يؤمنون ولا يستغفرون
إلا حين نزول العذاب الدنيوي بهم وهو ما اقتضته سنة الله - تعالى - في أمثالهم ،
أو حين نزول أصناف العذاب بهم في الآخرة .
ثم بين - تعالى - وظيفة الرسل فقال : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين
ومنذرين »

أى : تلك هي وظيفة الرسل الكرام الذين أرسلهم لهداية الناس وإخراجهم
من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

فهم يبشرون المؤمنين بحسن العاقبة وجزيل الثواب ، وينذرون الفاسقين والكافرين بسوء العاقبة ، وشديد العقاب .

وقوله - تعالى - : « ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » .
بيان لموقف الكافرين من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - .

« يجادل من المجادلة بمعنى المخاصمة والمنازعة . ومفعوله محذوف .

والباطل : هو الشيء الزائل المضمحل الذي هو ضد الحق والعدل . والحق هو الشيء الثابت القويم الذي تؤيده شريعة الله - عز وجل - .

والدحض : الطين الذي لا تستقر عليه الأقدام . فمعنى يدحضوا : ينزلوا ويبطلوا تقول العرب : دحضت رجل فلان ، إذا زلت وزلقت . ومنه قوله - تعالى - : « حجهتم داحضة عند ربهم » .

والمعنى : ويجادل الذين كفروا وسلمهم بالجدال الباطل ، لينزلوا به الحق الذي جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه ، والله - تعالى - متم نوره ولو كره الكافرون ، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الضمحلل والزوال .

وقوله - تعالى - : « وانخذروا آياتي وما أنذروا هزوا ، معطوف على ما قبله لبيان رديلة أخرى من ردائل هؤلاء الكافرين .

والمراد بآيات الله : تلك المعجزات التي أيد الله - تعالى - بها رسله سواء أكانت قولاً أم فعلاً ، ويدخل فيها القرآن دخولا أولياً .

أي : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بجادل وسلمهم بالباطل ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم اتخذوا الآيات التي جاء بها الرسل كدليل على صدقهم ، واتخذوا ما أنذروهم به من قوارع إذا ما استمروا على كفرهم . اتخذوا كل ذلك « هزوا ، أي : اتخذوها محل سخريتهم ولعبيهم ولهوهم واستخفافهم ، كما قال - سبحانه - : « وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوا » .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المعرضين عن التذكير وعن آيات الله فقال :
 « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه » ،
 والاستفهام هنا للنفي والإنكار والمراد بالآيات : آيات القرآن الكريم ،
 لقوله - تعالى - بعد ذلك : « أن يفقهوه » .

والمراد بالنسيان : الترك والإهمال وعدم التفكير والتدبر في العواقب .
 أى : ولا أحد أشد ظلماً وبغيًا . من إنسان ذكره مذكور ووعظه بآيات
 الله التي أنزلها على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، فأعرض عنها دون أن
 يقبلها أو يتأملها ، بل نبذها وراء ظهره ، ونسى ما قدمت يداه من السيئات
 والمعاصي ، نسيان ترك وإهمال واستخفاف .

ثم بين - سبحانه - علة هذا الإعراض والنسيان فقال : « إنا جعلنا على
 قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا
 إذا أبدا » .

والأكنة : جمع كنان بمعنى غطاء . والوقر : الثقل والصمم . يقال : فلان
 وقرت أذنه ، أى : نقل سمها وأصيبت بالصمم .

أى : إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق ، غطية تمنع
 قلوبهم عن وصول النور إليهم ، ونحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا
 - أيضا - في آذانهم صمما ونقلا عن سماع ما ينفعهم وذلك يسبب لاستحبابهم
 العمى على الهدى ، وإيثارهم الكفر على الإيمان .

« وإن تدعهم ، أيها الرسول الكريم ، إلى الهدى ، والرشد ، فلن
 يستجيبوا لك ، ولن يهتدوا إذا أبدا ، إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ،
 بسبب زيف قلوبهم ، واستيلاء الكفر والجحود والعدا عليها .

والضمير في قوله « أن يفقهوه » ، يعود إلى الآيات ، وتذكيره وإفراده
 باعتبار المعنى ، إذ المراد منها القرآن الكريم .

وجاء الضمائر في أول الآية بالافراد ، كما في قوله ، ذكر د و د أعرض عنها ، ونسى ما قدمت بداه ، باعتبار لفظ د من ، في قوله د ومن أظلم . . . وجاءت بعد ذلك بالجمع كما في قوله سبحانه - : إذا جعلنا على قلوبهم أكنة . . . ، باعتبار المعنى .

وهذا الأسلوب كثير في القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : د ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، قد أحسن الله له رزقا ، .

فالضمير في قوله د يؤمن : يعمل ويدخله ، جاء بصيغة الافراد باعتبار أنه ظ د من ، وفي قوله : د خالدين فيها ، جاء بصيغة الجمع باعتبار معنى د من ، . ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على سعة رحمته ، وعظيم فضله فقال : د وربك العفو ذو الرحمة ، د لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ، .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - هو صاحب المغفرة الكثيرة ، وصاحب الرحمة إلى وسعت كل شيء . لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب والمعاصي ، لعجل لهم العذاب بسبب ما يرتكبونه ، من كفر وأثم ، ولكنه - سبحانه - لم يعجل لهم العذاب رحمه منه وحلما .

وجملة د بل لهم موعد . . . ، معطوفة على مقدر ، فكأنه - سبحانه - قال : لكنه - سبحانه - لم يؤاخذهم ، بل جعل لهم وقتا معيناً لعذابهم ، لن يجدوا من دون هذا العذاب ، موئلا ، .

أى ملجأ يلتمسون إليه ، أو مكانا يعتصمون به .

فالموئل : اسم مكان . يقال : وأل فلان إلى مكان كذا يثل والا . . . إذا لجأ إليه ليعتصم به من ضرر متوقع .

فالآية السكينة تبين أن الله - تعالى - بفضلته وكرمه لا يعاجل الناس بالعقاب ، ولكنه - عز وجل - ليس غافلا عن أعمالهم ، بل يوخهم إلى

الوقت الذي تقتضيه حكمته ، لكي يمافيهم على ما ارتكبوه من ذنوب وآثام .

وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى . فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا » (١) .

وقوله - تعالى - : « وإن ربك لدومغفرة للناس على ظلمهم » ، وإن ربك لشديد العقاب » (٢) ثم بين - سبحانه - سنته في الأمم الماضية فقال : « وتلك القرى أهليكناهم لما ظلموا وجعلنا المهلكهم موعدا » .

واسم الإشارة « تلك » تعود إلى القرى المهلكة بسبب كفرها وفسوقها عن أمر ربها ، كقرى قوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام - .
والقرى : جمع قرية والمراد بها أهلها الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود .:

أى : « وتلك القرى الماضية التي أصر أهلها على الكفر والفسوق والعصيان أهليكناهم بعذاب الاستئصال في الدنيا ، بسبب هذا الكفر والظلم ، وجعلنا لوفاة هلاكهم موعدا لا يتأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون » .

ولفظ « تلك » مبتدأ ، والقرى صفة له أو عطف بيان ، وجملة « أهليكناهم » هي الخبر .

وقوله « لما ظلموا » بيان للأسباب التي أدت بهم إلى الهلاك والدمار ، أى : « أهليكناهم بسبب وقوع الظلم منهم واستمرارهم عليه » .

وجيء باسم الإشارة « تلك » ، للإشعار بأن أهل مكة يعمرون عن تلك القرى الظالمة المهلكة ، ويعرفون أمّاكنهم معرفة واضحة عند أسفارهم من مكة

(١) سورة فاطر الآية ٤٥

(٢) سورة الرعد الآية ٦٦

إلى بلاد الشام . قال - تعالى - ولأنكم لترون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ، (١) .

وقوله : وجعلنا لهم لهمكم موعدا ، قرأ الجمهور ، لهمكم ، - ضم الميم وفتح اللام - على صيغة المفعول ، وهو محتمل أن يكون مصدرا ميميا ، أى : رجعلنا لإهلاكهم موعدا . ويحتمل أن يكون اسم زمان ، أى : وجعلنا لزمان إهلاكهم موعدا .

وقرأ حفص عن عاصم ، لهمكم ، بفتح الميم وكسر اللام - فيكون اسم زمان ، وقرأ شعبة عن عاصم . لهمكم ، - بفتح الميم واللام - فيكون مصدرا ميميا .

وللى هنا نجد الآيات الكريمة قد وضحت أن القرآن الكريم قد نوع الله - تعالى - فيه الأمثال لقوم يعقلون ، كما بينت أن الإنسان مجبول على المجادلة والمخاصمة . وأن المشركين قد أصروا على شركهم بسبب انطباع بصائرهم ، وزيغهم عن الحق ، وأن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وظيفتهم البلاغ والتبشير والإنذار ، وأن عاقبة الجاحدين الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم هى النار وبئس القرار ، وأن الله - تعالى - يهمل الظالمين ولا يهتمهم ، فهو كما قال - سبحانه - نبي عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم ، (٢) .

• • •

ثم ساق - سبحانه - قصة فيما مافىها من الأحكام والعظات ، ألا وهى قصة موسى - عليه السلام - مع عبد من عباد الله الصالحين ، فقال - تعالى - :

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨

(٢) - سورة الحجر الآيتان ٤٩ ، ٥٦

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَزُوا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) » .

قال الإمام الرازي مالمحصة : اعلم أن هذا إبتداء قصة ثلاثة ذكرها الله - تعالى - في هذه السورة ، وهى أن موسى - عليه السلام - ذهب إلى الخضر ليتعلم منه ، وهذا وإن كان كلاما مستقلا في نفسه إلا أنه يعين على ماهو المقصود في القصتين السابقتين : أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين ، فهو أن موسى مع كثرة علمه وعمله ... ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له ...

وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف ، فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : « إن أحبركم محمد - صلى الله عليه وسلم - عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا ، وهذا ليس بشئ » . لأنه لا يلزم من كونه نبيا أن يكون عالما بجميع القصص كما أن كون موسى نبيا لم يمنعه من الذهاب ليتعلم منه ، (١) .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وهو أحد أولى العزم من الرسل ، ويفتهى نسبه إلى يعقوب - عليه السلام - .

وفتاة : هو يوشع بن نون ، وسمى بذلك لأنه كان ملازما لموسى - عليه السلام - ويأخذ عنه العلم .

وقوله : « لا أبرح ، أى : لا أزال سائرا . ومنه قوله - تعالى - « لن أبرح عليه عاكفين » . من برح الناقص .

قال الجبل : واسمها مستقر وجوبا ، وخبرها محذوف ، تقديره : لا أبرح سائرا ، وقوله ، حتى أبلغ . . . غايه لهذا المقدر . ويحتمل أنها قامة فلا تستدعى خبرا ، بمعنى : لا أزال عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه حتى أبلغ . . . (١) .

« وجمع البحرين » : المكان الذى فيه يلتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط .

قال الألوسى : والمجمع : الملتقى ، وهو اسم مكان . . . والبحران : بحر فارس والروم ، كما روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما وملتقاهما . ما إلى المشرق ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما . . . وقيل البحران : بحر الأردن وبحر القلزم . . . (٢) .

وقال بعض العلماء : والأرجح - والله أعلم - أن يجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم .

أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر . وجمعهما مكان التقائهما في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . أو أنه يجمع خليجى العقبة والسويس في البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر . وعلى أية حال فقد نزلها القرآن بحملة فنكتفى بهذه الإشارة ، (٣) .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك لىكى يعتبروا ويتعظوا

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ٣ ص ٣٢

(٢) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٣١٢ .

(٣) فى ظلال القرآن ص ٢٢٨٧ الأستاذ سيد قطب .

وقت أن قال أخوك موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون ، أحمبني في رحلتى هذه فإني لا أزال سائرا حتى أصل إلى مكان النقاء ، البحرين ، فأجد فيه بغيثي ومقصدي ، د أو أمضى ، في سيري ، حقا ، أي : زمنا طويلا ، إن لم أجد ما أبتغيه هناك .

والحقب - يضم الحاء والفاء - جمعه أحقاب ، ومعناه : الحقبه - بكسر الحاء - وجمعها حقب - كسدره وسدر - والحقبه - يضم الحاء - وجمعها : حقب كفرقة وغرف - . قبل : مدتها ثمانون عاما . وقبل سبعون . وقبل : زمان من الدهر مبهم غير محدد .

والآية الكريمة نزل بأسلوبها البامخ ، على أن موسى - عليه السلام - كان قد صمم على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة في سبيل ذلك ، ومبما يكن الزمن الذي يقطعه في سبيل الوصول إلى غايته ، وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه عنه القرآن بقوله : د أمضى حقا ، .

وقد أشار الألوسي - رحمه الله - إلى سبب تصميم موسى على هذه الرحلة فقال : د وكان منشأ عن ية موسى - عليه السلام - على ما ذكر ، مارواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أنى بن كعب ، أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : د إن موسى - عليه السلام - قام خطيبا في بني إسرائيل فمدل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أما . فعاتبه الله - تعالى - ، إذ لم يرد العلم لإيه - سبحانه - فأوحى الله - تعالى - إليه ، إن لي عبدا يجمع البحرين هو أعلم منك

وفي رواية أخرى عن أبي - أيضا - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن موسى - عليه السلام - سأل ربه فقال : أي رب فقال ، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فداني عليه ، فقال له : د نعم في عبادي من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له في لقائه ، (١) .

(١) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٣١٣ .

ثم تقص علينا السورة المكرمة ما حدث بعد ذلك فقول : د فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما . فاتخذ سبيله في البحر سربا .

والغناء في قوله : د فلما بلغا ، وفي قوله د فاتخذ سبيله . . . هي القصيدة

والسرب : النفق الذي يكون تحت الأرض . أو القناة التي يدخل منها الماء إلى البستان لسمي الزرع .

والمنى : وبمسد أن قال موسى لفته ما قال ، أخذنا في السير إلى مجمع البحرين ، لما بلغا هذا المكان د نسيا حوتهما ، أى : نسيا حوتهما ونسيا تفقده أمره ، فحي الحوت ، وسقط في البحر ، واتخذ سبيله ، أى طريقه د في البحر سربا .

أى : واتخذ الحوت طريقة في البحر ، فكان هذا الطريق مثل السرب أى النفق في الأرض بحيث يسير الحوت فيه ، وأثره واضح .

قال الإمام ابن كثير : قوله د فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، وذلك أنه قد أمر بحمل حوت مملوح - أى مشوى - معه وقيل له : متى فقدت الحوت ، فهو ثمة - أى فالرجل الصالح الذي هو أعلم منك يا موسى في هذا المكان - فسارا حتى بلغا مجمع البحرين . وهناك عين يقال لها عين الحياة ، فناما هناك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب ، وكان في مكنت مع يوشع ، وطفر من المكنت إلى البحر ، فاستيقظ يوشع ، وسقط الحوت في البحر ، وجعل يسير فيه ، والماء له مثل الطاق - أى مثل البقاء المقوس كالقنطرة - لا يلتئم بعده ، ولهذا قال : د فاتخذ سبيله في البحر سربا . أى : مثل السرب في الأرض ، (١) .

وقال الإمام البيضاوى : قوله د نسيا حوتهما ، أى : نسي موسى أن

يطلبه ويتعرف حاله ، ونسى يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما كان منهما بعد ذلك فقال : « فلما جاؤا ، أى : المسكان الذى فيه مجمع البحرين .

« قال ، موسى - عليه السلام - « لغتاه ، يوشع بن فون » آتنا غداءنا « أى : أحضر لنا ما تأكله من هذا الخوت المشوى الذى معنا : ثم علل موسى - عليه السلام - هذا الطلب بقوله : « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، أى : تعباً وإعياء .

وإسم الإشارة « هذا ، مشار به إلى سفرهما المتلبسان به .

قالوا . ولكن باعتبار بعض أجزائه ، فقد صح أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « لم يجد موسى شيئاً من التعب حتى جاوز المسكان الذى أمر به ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : « قال أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت » حكاية لما رد به يوشع على موسى - عليه السلام - عندما طلب منه الغداء . والاستفهام في قوله « أرأيت » ، للتعجب مما حدث أمامه من شأن الخوت حيث عادت إليه الحياة ، وقفز في البحر ، ومع ذلك نسي يوشع أن يخبر موسى عن هذا الأمر العجيب .

أى : قال يوشع لموسى - عليه السلام - : تذكر وإنتبه واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الخوت ، أرأيت ماذا نى في وقت أن أوتينا ولجأنا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين ، فإني هناك نسيت أن أذكرك ما شاهدته منه من أمور عجيبة ، فقد عادت إليه الحياة ، ثم قفز في البحر .

(١) تفسير البضاوى ج ٢ ص ١٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٥ ص ٣١٧ .

وقال : إذ أوتينا إلى الصخرة ، دون أن يذكر بجمع البحرين ، زيادة في تحديد المسكان وتعيينه . وأوقع النسيان على الخوت دون الغداء الذي طلبه منه موسى ، للاشعار بأن الغداء الذي طلبه موسى منه ، هو ذلك الخوت الذي فقدها .

وقوله : وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، جملة معترضة جىء بها لبيان ما يجرى مجرى السبب في وقوع النسيان منه .
وقوله : أن أذكره ، بدل إشتغال من الهاء في : أنسانيه ، .

أى : وما أنساني تذكرك بما حدث من الخوت إلا الشيطان الذي يوسوس للانسان ، بوساوس متعددة ، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور الهامة .

وقوله : واتخذ سبيله في البحر عجبا ، معطوف عن قوله : فإني نسيت الخوت ، .

أى : نسيت أن أخبرك بأن الخوت عندما أوتينا إلى الصخرة عادت إليه الحياة ، واتخذ طريقه في البحر اتجاذاً عجبياً ، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر في الماء والماء من حوله كالقنطرة التي تنفذ منها الأشياء .

وعلى هذا تكون جملة ، واتخذ سبيله في البحر عجبا ، من بقية كلام يوشع للمعجب مما حدث من الخوت ، حيث عادت إليه الحياة بقدرة الله - تعالى - ، واتخذ طريقه في البحر بتلك الصورة العجيبة .

وقيل : لأن هذه الجملة من كلام الله - تعالى - لبيان طرف آخر من أمر هذا الخوت العجيب ، بعد بيان أمره قبل ذلك بآء اتخذ سبيله في البحر سرياً .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح ، لأن سياق الآية يدل عليه ، لذا لاكتفى به بعض المفسرين دون أن يشير إلى غيره .

قال الامام الرازى : قوله : واتخذ سبيله في البحر عجبا ، فيه وجوه :

الأول : أن قوله « عجباً ، صفة لمصدر محذوف ، كأنه قيل : واتخذ سبيله في البحر إتخاذاً عجباً ، ووجه كونه عجباً إتقلابه من المسكتل وصيرورته حياً وإلقاء نفسه في البحر .

الثاني : أن يكون المراد منه ما ذكرنا من أنه - تعالى - جعل الماء عليه كالطاقو كالسرب .

الثالث : قيل إنه تم السكلام عند قوله « واتخذ سبيله في البحر » ، ثم قال بعده : عجباً . والمقصود منه تعجب يوشع من تلك الحالة العجيبة التي رآها ، ثم نسيانها لها . . . (١) .

وهنا يحكي القرآن ما يدل على أن موسى - عليه السلام - قد أدرك أنه تجاوز المسكان الذي حده له ربه - تعالى - للقاء العبد الصالح فقال : « قال ذلك ما كنا نبغ » ، فارتدا على آثارهما قصصاً .

أى قال موسى لفتاه : ذلك الذي ذكرته لي من أمر نسيانك لخبر الحوت هو الذي كنا نبغيه ونطلبه ، فإن العبد الصالح الذي نريد لقائه موجود في ذلك المسكان الذي فقدنا فيه الحوت .

« فارتدا على آثارهما قصصاً » ، أى : فرجعا من طريقهما الذي أتيا منه ، يتبعان آثارهما لئلا يضلأ عنه ، حتى انتهيا عائدين مرة أخرى إلى موضع الصخرة التي فقد الحوت عندها .

وقصصاً : من القصص بمعنى إنباع الأثر . يقال : قص فلان أثر فلان قصاً وقصصاً إذا تتبعه .

ثم حكى القرآن ما تم لهما بعد أن عادا إلى مكانهما الأول فقال : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلماؤه من لدنا علماً » .

أى : وبعد أن عادا إلى الصخرة عند مجمع البحرين مرة أخرى وجدا عبداً

من عبادنا ، الصالحين . والتذكير في « عبدا » ، للتفخيم ، والإضافة في « عبادنا » ، للتشريف والتكريم .

« آتيناها رحمة من عندنا ، أي : هذا العبد الصالح منجناه وأعطيناه رحمة عظيمة من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا : واختصصناه بها دون غيره . وهذه الرحمة تشمل النعم التي أنعم الله - تعالى - بها عليه - كنعمة الهداية والطاعة وغيرهما .

« وعلمناه من لدنا علما ، أي : وعلمناه من عندنا لا من عند غيرنا علماً خاصاً ، لا يتيسر إلا لمن زيد تيسيره ومنحه له . والمراد بهذا العبد : الخضر - عليه السلام - كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة .

ومن العلماء من يرى أنه كان نبياً ، ومنهم من يرى أنه كان عبداً صالحاً اختصه الله بلون معين من العلم اللدني .
أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء^(١) .

ويرى المحققون من العلماء أنه قد مات كما يموت سائر الناس . وإلى ذلك ذهب الإمام البخاري وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم وغيرهم . ويرى آخرون أنه حي وميموت في آخر الزمان .

قال ابن القيم : إن الأحاديث التي يذكر فيها أنه حي كلها كذب ، ولا يصح فيها حديث واحد . وهذه المسائل من المسائل التي فصل العلماء الحديث عنها . فارجع إلى أقوالهم فيها إن شئت^(٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ٣١٩ .

(٢) راجع ابن كثير ج ٥ ص ١٧١ . والألوسي ج ١٥ ص ٣١٩ وأضواء البيان

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ، ما دار بين موسى والخضر - عليهما السلام -
بعد أن التقيا فقال - تعالى - :

« قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولَكَ (٦٦)
قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ
خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)
قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ».

أى : قال موسى للخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا : هل أتبعك ، أى :
هل تأذن لى فى مصاحبتك وأتباعك . بشرط أن تعلمنى من العلم الذى علمك
الله لإياه : شيئا أستزدد به فى حياتى ، وأصيب به الخير فى دىنى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد راعى فى مخاطبته للخضر اسمى
ألوان الأدب اللائق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث خاطبه بصيغة
الاستفهام الدالة على التلطف ، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم ،
وحيث استأذنه فى أن يكون تابعا له ، ليتعلم منه الرشد والخير .

قال بعض العلماء : فى هذه الآية داليل على أن المتعلم تبع للعالم ، ولم
تفاوت المراتب ، ولا يظن أن فى تعلم موسى بن الخضر ما يبدل على أن الخضر
كان أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل . وقد يأخذ الفاضل عن
المفضول ، إذا أختص الله - تعالى - أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان
علم موسى يتعلق بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر
يتعلق ببعض الغيب ومعرفة البواطن ... (١)

ثم حكى - سبحانه - عارده الخضر على موسى فقال : « قال إنك لن تستطيع معي صبرا » .

أى : قال الخضر لموسى إنك يا موسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معي صبرا ، بأى وجه من الوجوه .

قال ابن كثير : أى : أنت لا تقدر يا موسى أن تصاحبنى ، لما ترى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله - تعالى - ما عليك إياه ، وأنت على علم من علم الله - تعالى - ما علمنى إياه ، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبى ، (١) .

وقوله : « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » ، تعليل لعدم استطاعة الصبر معه .

أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور ستراها منى . هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لا يصح السكوت عليها ، وباطنها لا تعلمه لأن الله لم يطلعك عليه ؟ فالخبر بمعنى العلم . يقال : خبر فلان الأمر يخبره : أى : علمه . والأسم الخبر ، وهو العلم بالشيء ، ومنه الخبر ، أى : العالم .

وكان الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : لئن وافق من أنك لن تستطيع معي صبرا ، لأن ما سأفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة ، وبالمنطق العقلى ، وبغير تلك المعبودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعّل ، لأن المصلحة الباطنة فى ذلك ، وهى تخفى عليك . . .

واسكن موسى - عليه السلام - الحريص على تعلم العلم النافع ، يصبر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة الله - تعالى - : « ستجدنى - إن شاء الله - صابرا ، ولا أعصى لك أمرا » .

أى : قال موسى للخضر : ستجدنى إن شاء الله صابراً ، معك ، غير معترض عليك ، ولا أعصى لك أمراً من الأمور التى تمكفنى بها .

وقدم موسى - عليه السلام - المشيئة ، أدباً مع خالقه - عز وجل - واستعانة به - سبحانه - على الصبر وعدم المخالفة .

وهنا يحكى القرآن الكريم أن الخضر ، قد أكد ما سبق أن قاله لموسى ، وبين له شروطه إذا أراد مصاحبته ، فقال : « قال فإن اتبعنى فلا تسألنى عن شئ ، حتى أحدث لك منه ذكراً ، » .

أى : قال الخضر لموسى على سبيل التأكيد والتوثيق : يا موسى إن رافقتنى وصاحبتنى ، ورأيت منى أفعالا لا تمجيك ، لأن ظاهرها يتنافى مع الحق . فلا تعترض عليها ، ولا تناقشنى فيها ، بل اتركنى وشأنى ، حتى أبين لك فى الوقت المناسب السبب فى قيامى بذلك الأفعال ، وحتى أكون أنا الذى أقصره لك .

قالوا : « وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر - موسى - ودأب لرأى العجب ، » .

ثم تحكى السورة بعد ذلك ثلاثة أحداث فعلها الخضر ولكن موسى لم يصبر عليها ، بل اعترض وناقش : أما الحادث الأول فقد بينه - سبحانه - بقوله :

« فَأَنْطَلَقَا ، حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِمُنْزَقِ أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) » .

وقوله : د فانطلقا ، بيان لما حدث منهما بعد أن استمع كل واحد منهما إلى ما قاله صاحبه .

أى : فانطلق موسى والنضر - عليهما السلام - على ساحل البحر ، ومعهما يوشع بن نون ، ولم يذكر في الآية لأنه تابع لموسى .

وبرى بعضهم أن موسى - عليه السلام - صرف فتاه بعد أن التقى بالنضر .

أخرج الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر ففرت بهما سفينة د فكلهموم أن يحملوم ، ففروا النضر لحملومابغير قول : أى أجر ، (١) .

وقوله : د حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ، بيان لما فعله النضر بالسفينة .

أى : فانطلقا يبحثان عن سفينة ، فلما وجداها واستقرا فيها ، ما كان من النضر إلا أن خرقها . قيل : بأن قلع لوحا من ألواحها .

وهنا ما كان من موسى إلا أن قال على سبيل الاستنكار والتعجب عما فعله : د آخرقتها اتغرق أهلها

أى : أفعلت ما فعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الفرق والموت بهذه الصورة المؤلمة ؟

د لقد جئت شيئا إمرا ، والإمر : الداهية . وأصله كل شيء شديد كبير ومنه قولهم : إن القوم قد أمروا . أى : كثروا واشتد شأنهم . ويقال : هذا أمر إمرا ، أى : منكر غريب .

أى : قال موسى للنضر بعد خرقه للسفينة : لقد جئت شيئا عظيما ، وارتكبت أمرا بالغا في الشناعة . حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الفرق .

وهنا أجابه الخضر بقوله : « ألم أقل لك ان تستطيع معي صبرا ، أى :
ألم أقل لك سابقا لك ان تستطيع مصاحبتى ، ولأخرة لك على السكوت
على تصرفانى التى لا تعرف الحكمة من وراءها ؟

ولكن موسى - عليه السلام - رد معتذرا لما فرط منه وقال : « لا تأخذنى ،
أيها العبد الصالح . بما نسيت ، أى : بسبب نسيانى لوصيتك فى ترك السؤال
والاعتراض حتى يكون لى منك البيان .
ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، أى : ولا تكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى
إياك .

يقال : أوهق فلان فلانا ، إذا أتعبه وأثقل عليه وحمله مالا يطيقه .
والمراد : التمس لى عذرا بسبب النسيان ، ولا تضيق على الأمر ، فإن فى هذا
التضييق ما يحول ببنى وبين الانتفاع بهلك ،

وكان موسى . عليه السلام - الذى اعتزم الصبر ، وفهم المشيئة ، ورضى
بشروط الخضر فى المصاحبة . . . كأنه قد نسى كل ذلك أمام المشاهدة العملية ،
وأعام التصرف الغرب الذى صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .

وهكذا الطبيعة البشرية تلتقى فى أنها نجد للتجربة العملية وقعا وطعما ،
يختلف عن الواقع والطعم الذى تجده عند التصور النظرى .

فموسى - عليه السلام - وعد الخضر بأنه سيصبر . . . إلا أنه بعد أن
شاهد مالا يرضيه اندفع مستنكرا .

أما الحادث الثانى الذى لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا ، فقد حكاه
القرآن فى قوله :

« فَاظْلَمْنَا حَتَّى إِذَا لَقِيَ غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ أَقْتَلْتَنِي سَازِئَةً بِغَيْرِ
نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ

مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنَ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) .

أى : فانطلق موسى والخضر للدرة الثانية بعد خروجهما من السفينة ، وبعد أن قبل الخضر اعتذار موسى .

« حتى إذا لقيا غلاما ، فى طريقهما ، ما كان من الخضر إلا أن أخذه وقتله » .

وهنا لم يستطع موسى - عليه السلام - أن يصبر على ما رأى ، أو أن يكظم غيظه ، فقال باستنكار وغضب : « قتلنا نفسا زكية ، أى : طاهرة بريئة من الذنوب » بغير نفس ، ،

أى : بغير أن ترتكب ما يوجب قتلها ، لأنهم لم يقتل غيرها حتى تقتص منها .
أى : أن قتلنا لهذا الغلام كان بغير حق .

« لقد جئت « أيها الرجل » شبتا نكرا ، أى : منكرا عظيما . يقال : نكرا الأمر ، أى : صعب واشتد . والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكاره بقول له .

وسر أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه . وبالوعد الذى قطعه على نفسه ، فيقول له : « ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا » .

وفى هذه المرة لا يكفى الخضر بقوله : « ألم أقل لك . . . » بل يضيف لفظ ، لك ، زيادة فى التحديد والتعيين والتذكير .

أى : ألم أقل لك أنت يا موسى لا لغيرك على سبيل التأكيد والتوثيق : إنك لن تستطيع معي صبرا ، لأنك لم تحط علما بما أفعله .

ويراجع موسى نفسه . فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بأخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيره فيقول : « إن سألتك ،

أيها الصديق د عن شيء بعدها ، أى : بعد هذه المرة الثانية فلا تصاحبني ، أى : فلا تجملني صاحباً أو رفيقاً لك ، فإنك د قد بلغت من لدني عذراً ، أى : فإنك قد بلغت الغاية التي تكون معذوراً بعدها في فراقى ، لأننى أكون قد خالفتك مراراً .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يدل على إعتذاره الشديد بالخضر ، وعلى شدة ندمه على ما فرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئته .

قال القرطبي : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا دعا لأحد بدأ بنفسه فقال يوماً : د رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، ولكنه قال : د إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ... ، (١) .
ثم نسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والآخر في تلك القصة الزاخرة بالمفاجآت والعجائب فنقول :

« فَاذْكُرُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعُوا أَهْلَهَا ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) » .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - يتابعان - يرهما ، حتى إذا أتيا أهل قرية ، قيل هى د أنطاكية ، ، وقيل : هى قرية بأرض الروم ...
د استطعنا أهلها ، والاستطعام : سؤال الطعام . والمراد به هنا سؤال الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر - عليهما السلام - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : د فأبوا أن يضيئفوهما ، يشهد له .

أى : فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهمما بخلا منهم وشحا .

وقوله - تعالى - د فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه، معطوف على د أتيا، أى : وبعد أن امتنع أهل القرية عن استضافتهما، تجولافيهما، فوجدوا فيها جداراً، أى : بناء مرتفعاً يريد أن ينقض، أى : ينهدم ويسقط . فأقامه، أى الخضر بأن سواه وأعاد إليه إعتداله . أو بأن نقضه وأخذ في بنائه من جديد .

وهنا لم يتمالك موسى - عليه السلام - مشاعره، لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة، قوم بخلاء أشقاء لا يستحقون العون ... ورجل يتعب نفسه في إقامه - أنط مائل لهم ... هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق، خصوصاً وهما جائعان لا يجدان مأوى لهم في تلك القرية !

لذا بادر موسى - عليه السلام - ليقول للخضر : د لو شئت لاتخذب عليه أجراً ،

أى : هلا طلبت أجرا من هؤلاء البخلاء على هذا العمل، حتى تنففع به، وأنت تعلم أننا جائعان وهم لم يقدموا لنا حتى الضيافة .

فالجلة الكريمة تحريض من موسى للخضر على أخذ الأجر على عمله، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما في أشد الحاجة إليه .

وكان هذا التحريض من موسى للخضر - عليهما السلام - هو نهاية المرافقة والمصاحبة بينهما، ولذا قال الخضر لموسى : د هذا فراق بيني وبينك ، أى : هذا الذى قلته لى، يحملنا نفترقان ، لأنك قد قلت لى قبل ذلك : د إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، وهما أنت تسألنى وتحرضنى على أخذ الأجر ...

ومع ذلك فانتظر : سأنبئك ، قبل مفارقتى لك د بشأويل ، أى : بتفسير وبيان ما خفى عليك من الأمور الثلاثة التى لم تسطع عليها صبراً، لأنك لم يكن عندك ما عندى من العلم بأمرارها الباطنة التى أطلعنى الله - تعالى - عليها .

ثم حكى القرآن الكريم ما قاله الخضر لموسى عليهما السلام - في هذا الشأن فقال - تعالى - .

« أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) » .

أى قال الخضر لموسى : « ، أما السفينة ، التى أغرقتها ولم ترض عنه ، فكانت لمساكين يعملون فى البحر » أى : لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم ، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فمكازة الناس بركيون فيها وبدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذين يمتنعون به .

« فأردت أن أعيبها ، أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقها فيه ، ولم أرد أن أغرق أهلها كما ظننت يا موسى ، والسبب فى ذلك ؛ أنه كان وراءهم ملك ، ظالم ، من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصالحة ، ويستولى عليها ، ويأخذها لإغتصابا وقسرا من أصحابها .

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة . كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم ، وكان سببا فى بقائها فى أيدي أصحابها المساكين ..
فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .

ويرى بعضهم أن المراد بالوراء الإمام . ويرى آخرون أن المراد به الخلفاء وقال الزجاج : وراء : يكون للخلف والإمام . ومعناه : ما نوارى عنك واستقر . وظاهر قوله - تعالى - : « ، يأخذ كل سفينة غصبا ، يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت صحيحة أم معيبة ، ولكن هذا الظاهر غير مراد . وإنما المراد : يأخذ كل سفينة سليمة . بدليل : فأردت أن أعيبها ، أى : لئلا يأخذها ، ومن هنا قالوا : إن لفظ « سفينة » هنا موصوف بصفة محذوفة ، أى : يأخذ كل سفينة صحيحة .

و . غصبا ، منصوب على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ . و الغصب - من باب ضرب - : أخذ الشيء ظلما وقهرا .

ثم بين - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى في اعتراضه على الحادثة الثانية فقال - تعالى - :

« وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ، فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) » .

أى : « وأما الغلام ، الذى سبق لى أن قتلته ، واعترضت على قتلته يا موسى . فكان أبواه مؤمنين ، ولم يكن هو كذلك فقد أعلنى الله - تعالى - أنه طبع كافرا . فخشينا أن يرهمهما طغيانا وكفرا ، والخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه .

و يرهمهما ، من الإرهاق وهو أن يحمل الإنسان ما لا يطيقه .

أى : فخشينا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر ، لشدة محبتهم له ، وحرصهما على إرضائه .

« فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ .. » ، والإبدال : رفع شيء ، وإحلال آخر محله .

أى : « فأردنا ، بقتله ، أن يبدلها ربهما ، بدل هذا الغلام الكافر الطاغى ، ولذا آخر ، خيرا منه ، أى من هذا الغلام ، زكاة ، أى : طهارة وصلاحا ، وأقرب رحما ، أى : وأقرب فى الرحمة بهما ، والعطف عليهما ، والطاعة لهما ،

ثم ختم - سبحانه - القصة ، ببيان ما قاله الخضر لموسى فى تأويل الحادثة الثالثة فقال - تعالى - :

« وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (١٢) » .

أى : « وأما الجدار ، الذى أنعمت نفسى فى إقامته ، ولم يعجبك هذا منى .
« فكان لغلامين يتيمين ، مات أبوهما وهما صغيران ، وهذان الغلامان يسكنان فى تلك المدينة ، التى عبر عنها القرآن بالقرية سابقا فى قوله : « فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ... »

« قالوا : ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا ، لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد ما فيها من اليتيمين ، وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح ، (١) .
« وكان تحته ، أى تحت هذا الجدار « كنز لهما ، أى : مال مدفون من ذهب وفضة ... ولعل أباهما هو الذى دفنه لهما »

« وكان أبوهما صالحا ، أى : رجلا من أصحاب الإصلاح والتقوى ، فكان ذلك منه سببا فى رعاية ولديه ، وحفظ مالهما .

« فأراد ربك ، وما لك أمرك ، ومدير شئونك ، والذى يجب عليك أن تستسلم وتنقاد لإرادته .

« أن يبلغا أشدهما ، أى : كمال رشدهما ، ونماد نموها وقوتها :

ويستخرجا كنزهما ، من تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنى أقتنه لا نقض وخرج الكنز من تحته قبل إقتدارهما على حفظه وعلى حسن التصرف فيه .

« رحمة من ربك ، أرى : وما أراده ربك - ياموسى - بهذين الغلامين ،
هو الرحمة ليس بمدما رحمة ، والحكمة التى ليس بمد حكمة .
فقوله « رحمة » مفعول لأجله .

ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول :
« وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا . »

أى : وما فعلت ما فعلته عن إجتهد منى ، أو عن رأي الشخصى ، وإنما
فعلت ما فعلت بأمر ربى وما لك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من
تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا ، ولم تطاق السكوت
عليه ، لأنك لم يظلمك الله - تعالى - على خفايا تلك الأمور وبواطنها ...
كما أظلمنى .

وحذفت التاء من « تستطع » تخفيفا . يقال : استطاع فلان هذا الشيء
واستطاعه بمعنى أطاقه وقدر عليه .

وبذلك انكشف المستور لموسى عليه السلام - وظهر ما كان خافيا عليه .
هذا ، وقد حاق الإمام ابن كثير عند تفسيره لآيات تلك القصة جملة من
الاحاديث ، منها ما رواه الشيخان ، ومنها ما رواه غيرهما ، ونكتفى هنا بذكر
حديث واحد .

قال - رحمه الله - قال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا
عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد بن جبير قال . قلت لابن عباس : إن نوحا
البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى نبي بنى إسرائيل .

قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - يقول : إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فمثل
أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فغضب الله عليه لإذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله
إليه : إن عبدا يجمع البحرين هو أعلم منك . فقال موسى : يارب ، وكيف
لى به ؟

قال : تأخذ معك حوتا ، نجعله بمكمل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ،

فأخذ حوتا ، فجعله في مكمل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون .
حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رموسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكمل ،
فخرج منه فسقط في البحر ، وأخذ سبيله في البحر سررا ، وأمسك الله عن
الحوت جربة الماء ، فصار عليه مثل الطاق .

فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت .

فانطلقا بقية يومهما وليلتها ، فلما كان الغد قال موسى لفتاة :
و آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز
المكان الذي أمره الله به .

قال له فتاه : د رأيت إذ أرينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه
إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا . قال : فمكان للحوت
سررا ولموسى وفتاه عجبا .

فقال موسى : . ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آزارهما قصصا . .

قال : فرجعا يقصان أثرهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى
- أى مغشى - بثوب ، - فلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام
قال : أنا موسى : قال : موسى نبي إسرائيل قال : نعم ، أنبتك لتعلمني ما علمت
رشدا . قال : إنك لن تستطيع معي صبرا -

يا موسى : إني على علم من علم الله علمه ، لا أعلمه أنت ، وأنت على علم
من علم الله علمه لا أعلمه .

قال موسى : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال الخضر
فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا بمشيان ، فمرت سبعة فساكنهم أن يحملوه . فمروا الخضر -

معلوم بهير نول - أى بهير أجر - فلما ركبا في السفينة، لم ينجيا إلا والخضر
قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم .

فقال له موسى : قد حملونا بهير نول ، فعمدت إلى سفينتهم نخرقتهما
لتفرق أهلها ، لقد جئت شيئا لمرأ .

قال له الخضر : ألم أقل إنك ان تستطيع معى صبرا . قال : لا تأخذنى
بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

قال : وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كانت الأولى من موسى
نسيانا ، قال : وجا . عصفور فوق على حرف السفينة . فنقر في البحر نقرة .
فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى علم الله ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور
من البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذا أبصر الخضر
غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله . فقال له موسى :
« أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال : ألم أقل لك إنك
ان تستطيع معى صبرا .

قال : وهذه أشد من الأولى . قال : قال : إن سألتك عن شىء بعدها
فلا تصاحبى .

دفاظلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا
فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . قال : لو شئت لانخذت عليه أجرا . قال :
هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع على صبرا ، .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : وددنا أن موسى كان قد صبر
حتى يقص الله علينا من خيرهما ، (١) .

وقد أخذ العلماء من هذه القصة أحكاما وآدابا من أهمها ما يأتى :

١ - أن الإنسان مهما أوتي من العلم ، فعليه أن يطلب المزيد ، وأن لا يعجب بعلمه ، فاقه - تعالى - يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وطلب من نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتضرع إليه بطلب الزيادة من العلم فقال : « وقل رب زدني علما » .

٢ - أن الرحلة في طلب العلم من صفات العقلاء ، فموسى - عليه السلام - وهو من أولى العزم من الرسل ، تجشم المشاق والمتاعب ، لكي يلتقي بالرجل الصالح ، ليفتق بعلمه ، وصمم على ذلك مهما كانت العقبات بدليل قوله - تعالى - حكاية عنه : « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أفضى حقا » . قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم ، والاستمانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم . وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون لطلب العلم إلى الحظ الراجح : وحصلوا على السمي الناجح ، فرسخت لهم في العلوم أقدام . وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأنعام .

قال البخاري : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في طلب حديث ، (١) .

٣ - جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى الطبيعة البشرية ، كالجوع والعطش والتعب والنسيان فقد قال موسى لفتهاه : « آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » ، ورد عليه فتهاه بقوله : « رأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره »

وفي هذا الرد - أيضا - من الأدب ما فيه ، فقد نسب سبب النسيان إلى الشيطان ، وإن كان السبب بقضاء الله - تعالى - وأمره .

٤ - أن العلم على قسمين : علم مكتسب يدركه الإنسان باجتهاده وتحصيله . .

بمد عون الله تعالى - له . وعلم لذني يهيه الله - سبحانه - لمن يشاء من عباده .
فقد قال - تعالى - في شأن الخضر : وعلمناه من لدنا علما ، أى : علما خاصا
أطلعناه الله عليه يشمل بعض الأمور الغيبية

• - أن على المتعلم أن يخفض جناحه للمعلم ، وأن يخاطبه بأرق العبارات
وألطفها ، حتى يحصل على ما عنده من علم بسرور وارتياح .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وتأمل ما حكاه الله عن موسى في قوله للخضر :
هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا ، فقد أخرج الكلام بصورة
الملاطفة والمشاورة ، فكأنه يقول له . هل تاذن لي في ذلك أولا ، مع إقراره
بأنه يتعلم منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبره الذي لا يظفر المعلم
افتقاره إلى علمه . . . (١) .

٦ - أنه لا بأس على العالم ، إذا اعتذر للمتعلم عن تعليمه ، لأن المتعلم
لا يطيق ذلك ، لجهله بالأسباب التي حملت العالم على فعل تلك الأمور التي ظاهرها
يتخالف الحق والعدل والمنطق العقلي ، وأن معرفة الأسباب تعين على الصبر .
فقد قال الخضر لموسى : وإني لك لن أتستطيع معي صبرا وكيف تصبر على
ما لم تحط به خبرا ، فقد جعل الموجب لعدم صبره . عدم إحاطته خبرا بالإمر .
٧ - أن من علامات الإيمان القوى ، أن يقدم الإنسان المشيئة عند
الإقدام على الأعمال ، وأن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله ، فقد قال
موسى للخضر : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، ومع ذلك
فعند ما رأى منه أفعالا يتخالف ظاهرها الحق والصلاح ، لم يصبر
وأنه لا بأس على العالم أن يشترط على المتعلم أمور معينة قبل أن يبدأ في
تعليمه .

فقد قال الخضر لموسى : إن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث
لك منه ذكرا .

(١) تفسير الكرم الرحمن في تفسير كلام المنان ج ٥ ص ٢٣ للشيخ عبد الرحمن
بن ناصر السعدي .

٨ - أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر، فإن خرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غصباً ، وإن قتل الغلام شر ، ولكنه أقل من الشر الذي سيقرب على بقاءه . وهو إرهابه لأبويه ، وحماتها على الكفر . . .

كما يجوز للإنسان أن يعمل عملاً في ملك غيره بدون إذنه بشرط أن يكون هذا العمل فيه مصلحة لذلك الغير كأن يرى حريقاً في دار إنسان فيقدم على إطفائه بدون إذنه ، ويدفع ضرر الحريق بضرر أقل منه ، فقد خرق الحضر السفينة ، لكي تبقى لأصحابها المساكين .

٩ - أن التأي في الأحكام . والتثبت من الأمور ، ومحاولة معرفة العلل والأسباب . . . كل ذلك يؤدي إلى صحة الحكم ، وإلى سلامة القول والعمل .
وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول : « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لراى العجب » .

١٠ - أن من دأب العقلاء الصالحين . استعمال الأدب مع الله - تعالى - في التعبير ، فالخضر قد أضاف خرقه السفينة إلى نفسه فقال : « فأردت أن أعيبها . . . » ، وأضاف الخير الذي فعله من أجل الغلامين اليتيمين إلى الله فقال : « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » ؛

وشبيه بهذا ما حكاه الله - تعالى - عن صالحى الجن في قولهم : « وانا لاندري أشمر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً » .

١١ - قال القرطبي : قوله - تعالى - « يريد أن يفض ، أى : قرب أن يسقط . وهذا مجاز وتوسع .

وقد فسره فى الحديث بقوله « مائل ، فكان فيه دابل على وجود المجاز فى القرآن ، وهو مذهب الجمهور .

وجميع الأفعال التى حقها أن تكون للحى الناطق إذا أسندت إلى جماد أو بهيمة ، فإنما هى استمارة .

أى : لو كان مكانها إنسان لكان ممثلاً لذلك الفعل ، وهذا فى كلام العرب وأشعارها كثير ، كقول الأعشى :

أنهموز ولا يهوى ذرى شطط كاطمن يذهب فيه الزيت والقتل
والشطط : الجور والظلم ، بقول : لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطمن
العميق الذى يغيب فيه القتل - فأضاف النهى إلى الطمن . . .

وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن . . . فإن كلام الله عز وجل - وكلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - حمله على الحقيقة أولى بذى الذهب والدين ، لأنه يقص الحق كما أحبر الله - تعالى - فى كتابه . . . (١) :

وقد صرح صاحب أضواء البيان أنه لا مجاز فى القرآن فقال ما ملخصه :
قوله - تعالى - : « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . . . » ،

هذه الآية من أكبر الأدلة التى يستدل بها القائلون : بأن المجاز فى القرآن ،
واعين أن إرادة الجدار الانقضاء لا يمكن أن تكون حقيقة وإما هى مجاز .

وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من أن تكون إرادة الجدار حقيقة ، لأن الله - تعالى - يعلم للجادات إرادات وأفعالا وأقوالا لا يدركها الخلق ، كما صرح - تعالى - وبأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه فى قوله - سبحانه -
« وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . . »

فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم ونسبحهم واقع عن إرادتهم يعلمها - سبحانه - ونحن لا فعلها . . .

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إني لأعرف حجرا كان يسلم على بكه ، وما ثبت فى صحيح البخارى من حديث الجزع الذى كان يخطب عليه - صلى الله عليه وسلم - حزنا لفرقه .

ففسلیم ذلك الحجر ، وحذین ذلك الجرع ، كلاهما بإرادة وإدراك بعلمه
الله ونحن لا نعلمه ... (١) .

١٢ - أن صلاح الآباء ينفع الأبناء . بدليل قوله - تعالى - : « وكان
أبوهما صالحا ... » .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فيه دليل على أن الرجل
الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته ما ينفعهم في الدنيا والآخرة ،
بشفاعته فيهم ، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم ، كما جاء
في القرآن ووردت السنة به .

قال سعيد بن جبیر عن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما
١٣ - أن على الصاحب أن لا يفارق صاحبه حتى يبين له الأسباب التي
حملته على ذلك ، فأنت ترى أن الخضر قد قال لموسى : « هذا فراق بنى وبينك ،
سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » . (٢) أى : قبل مفارقتى لك سأخبرك
عن الأسباب التي حملتني على فعل ما فعلت ، ما لم تستطع معه صبرا .
ويفهم من ذلك أن موافقة الصاحب لصاحبه - في غير معصية الله - تعالى -
على رأس الأسباب التي تعين على دوام الصحبة وتقويتها ، كما أن عدم الموافقة ،
وكثرة المخالفة ، تؤدي إلى المقاطعة

كما يفهم من ذلك - أيضاً - أن المناقشة والمحاورة متى كان الغرض منها
الوصول إلى الحق ، وإلى المزيد من العلم ، وكانت بأسلوب مذهب ، وبنية طيبة ،
لا تؤثر في دوام المحبة والصدقة ، بل تزيدهما قوة وشدة

نسأل الله - تعالى - أن يؤدبنا بأدبه ، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ،
وأنس نفوسنا

ثم ساق - سبحانه - قصة ذى القرنين ، وهى القصة الرابعة والأخيرة في الصورة
فقد سبقتها قصة أصحاب الكهف . وقصة صاحب الجننتين وقصة موسى والخضر .

(١) راجع أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٨٣ .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقصى علينا بأسلوبه البليغ المؤثر خبر
ذی القرنیر فبقول :

« ويسألونك عن ذی القرنین ، قل سأتلو علیکم منه ذِکراً (٨٣)
إنا مكننا له فی الأرضِ وآتيناه من كل شیء سبباً (٨٤) فأتبع
سبباً (٨٥) حتی إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فی غنیم حیمة
ووجد عندها قوماً ، قلنا یاذا القرنین إما أن تعذب وإما أن تتخذ
فیهم حسنة (٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم یرد إلى ربه
فیعذب به عذاباً نكراً (٨٧) وإما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى
وسنقول له من أمرنا یسرراً (٨٨) ثم أتبع سبباً (٨٩) حتی إذا بلغ
مطلع الشمس وجدها تطلع علی قوم لم نجعل لهم من دونها سیراً (٩٠)
كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً (٩١) ثم أتبع سبباً (٩٢) حتی
إذا بلغ بین السدین وجد من دونهما قوماً لا یكادون یفقهون قولاً (٩٣)
قالوا یاذا القرنین إن یأجوج ومأجوج مفسدون فی الأرض
فهل نجعل لك خرجاً علی أن تجعل بیننا و بینهم سداً (٩٤) قال
ما مكنی فیہ ربی خیر فاعینونی بقوة اجعل بینكم و بینهم
ردماً (٩٥) آتونی زبر الحديد حتی إذا ساء بین الصدفین قال
انفخوا حتی إذا جعله نارا قال آتونی أفرغ علیه قطراً (٩٦)
فما استطاعوا أن یمسوه وما استطاعوا له نقباً (٩٧) قال هذا رحمة
من ربی فإذا جاء وعد ربی جعله دكاً وكان وعد ربی حقاً (٩٨) . »

وقوله - سبحانه - : « ويسألونك عن ذى القرنين ... » معطوف على قصة موسى والخضر - عليهما السلام - حذف القصة على القصة .

قال البقاعى : كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على لرحلات من أجل العلم ، وكانت قصة ذى القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الحمد فى سبيل الله ، ولما كان العلم أساس الحمد تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذى القرنين . . . (١) .

والسائلون هم كفار قريش يتلقين من اليهود ، فقد سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لقصة أصحاب الكهف . أن اليهود قالوا لوفد قريش : سلوه - أى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن ثلاث نأمركم بهن ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من أمرهم . . . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها . . . وسلوه الروح .

وجاء التعبير بصيغة المضارع - مع أن الآيات نزلت بعد سقوطهم - لاستحضار الصورة الماضية ، أو للدلالة على أنهم إستمروا فى الجاهم إلى أن نزلت الآيات التى ترد عليهم .

أما ذو القرنين ، فقد اختلفت فى شأنه أقوال المفسرين إختلافا كبيرا ، لعل أقربها إلى الصواب ما أشار إليه الآلوسى بقوله : وذكر الريحان البيرونى فى كتابه المسمى « بالآثار الباقية عن القرون الخالفة » أن ذا القرنين هو أبو كريب الخيرى ، وهو الذى : « افتخر به تبع اليماني حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا علا فى الأرض غير مفند
بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد

ثم قال أبو الريحان : وبشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن ملوك اليمن كانوا يلقبون بكلمة ذى . كذى نواس ، وذى يزن . إلخ . (٢) .

(١) نظم الدرر للبقاعى ج ١٢ ص ١٢٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٦ ص ٢٧ .

ومن المقطوع به أن ذا القرنين هذا : لبس هو الإسكندر المقدوني الملقب بذي القرنين . تلميذ أرسطو ، فإن الاسكندر هذا كان وثنيا . بخلاف ذي القرنين الذي تحدث عنه القرآن ، فإنه كان مؤمنا بالله - تعالى - ومعتقدا بصحة البعث والحساب .

والرأى الراجح أنه كان عبدا صالحا ، ولم يكن نبيا . ويرى بعضهم أنه كان بعد موسى - عليه السلام - ، ويرى آخرون غير ذلك ومن المعروف أن القرآن الكريم يهتم في قصصه ببيان العبر والعظات المستفادة من القصة ، لا ببيان الزمان أو المكان للأشخاص . وسمى بذي القرنين - على الراجح - لبلوغه في فتوحاته قرني الشمس من أقصى المشرق والمغرب .

والمعنى : وبسألك قورمك - يا محمد - عن خبر ذي القرنين وشأنه .
« قل ، لهم - على سبيل التعليم والرد على تحديهم لك - » سأتلو عليكم منه ذكرا ، .

والضمير في « منه » يعود على ذي القرنين ، و « من » ، للتبويض .
أى : قل لهم : سأتلو عليكم من خبره . وسأقص عليكم من أنبائه عن طريق هذا القرآن الذي أوحاه الله إلى ما يفيدكم ويسكون فيه ذكرى وعبرة لكم إن كنتم تعقلون .

ثم بين - سبحانه - ما أعطاه الله لذي القرنين من نعم فقال : « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا . فأتمتع سببا . »

وقوله : « مكنا » من التمكين بمعنى إعطائه الوسائل التي جعلته صاحب نفوذ وسلطان في أقطار الأرض المختلفة . والمفعول محذوف ، أى : إنا مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء . بأن أعطيناه سلطانا وطيمنا الدعائم ، وآتيناه من كل شيء أراده في دنياه لتقوية ملكه سببا ، أى . سبيلا وطريقا يوصله إلى مقصوده ، كآلات السير ، وكثرة الجند ، ووسائل البقاء والعمران

وهذه الأسباب التي أعطاها الله لإياه ، لم يرد حديث صحيح بتفصيلها ، فعلمنا أن نؤمن بأن الله - تعالى - قد أعطاها وسائل عظيمة لتدعيم ملكه ، دون أن نلتفت إلى ما ذكره هنا بعض المفسرين من إسرئيليات لا قيمة لها .

والفأ - في قوله « فأتبع سببا » فصحيحة . أي : فأراد أن يزيد في تدعيم ملكه ، فسلط طريقا لكي يوصله إلى المساكن الذي تغرب فيه الشمس .

« حتى إذا بلغ مغرب الشمس ، أي حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة في زمنه من جهة المغرب .

« وجدها تغرب في عين حمئة ، أي : رآها في نظره عند غروبها ، كأنها تغرب في عين مظلمة ، وإن لم تكن هي الحقيقة كذلك .

وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس ماء ، فإنه يراها كأنها تشرق منه وتغرب فيه ، كما أن الذي يكون في أرض ملساء واسعة ، يراها كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها .

وحمئة : أي : ذات حمأة وهي الطين الأسود . يقال : حمأت البئر نحما حمأ ، إذا صارت فيها الحمأة وهي الطينة السوداء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : وجدها تغرب في عين حامية أي : حارة . لاسم فاعل من حمى يحمى حميا .

« ووجد عندها قوما ، أي : ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوما . الظاهر أن هؤلاء القوم كانوا من أهل الفترة ، فدعاهم ذو القرنين إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، ففهم من آمن ومنهم من كفر ، فخير الله - تعالى - فيهم فقال : « قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما تتخذ فيهم حسنا ، .

أي : قال الله - تعالى - له عن طريق الإلهام ، أو على لسان ملك أخبره بذلك : يا ذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم الكافرين أو الفاسقين بالقتل أو غيره ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا إذا حسن ، أو أمرا حسنا ، تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

ثم حكى الله - تعالى - عنه في الجواب ما يدل على سلامة تفكيره . فقال :
 « قال أما من ظلم ... » أى : قال ذو القرنين في الرد على تخيير ربه له في
 شأن هؤلاء القوم ، يارب : « أما من ظلم نفسه بالاصرار على الكفر والفسوق
 والعصيان ، فسوف نعذبه ، في هذه الدنيا بالقتل وما يشبهه . ثم يرد هذا الظالم
 لنفسه إلى ربه - سبحانه - فيعذبه في الآخرة عذاباً ، فكراً ، أى : عذاباً
 فظيها عظيماً متكرراً وهو عذاب جهنم .

« وأما من آمن وعمل صالحاً ، يقتضيه إيمانه وفله ، في الدارين » جزاء
 الحسنى ، أى : فله المثوبة الحسنى ، أو الفعلية الحسنى وهي الجنة .
 « وسنقول له ، أى لمن آمن وعمل صالحاً ، من أمرنا ، أى بما أمره به
 قولاً ، يقرأ ، لا صعوبة فيه ولا مشقة ولا عسر .

فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد إلتنع في حكمه الطريق
 القويم . والأسلوب الحكيم ، الذي يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ،
 وطهارة النفس .

لأنه بالنسبة للظالمين ، يعذب ، ويقتصص ، ويهرب النفوس المنحرفة ، حتى
 تعود إلى رشادها ، وتقف عند حدودها .

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين ، يقابل إحسانهم بإحسان وملاهم بمصالح
 وإستقامتهم بالتكريم والقول الطيب ، والجزاء الحسن .
 وهكذا الحاكم الصالح في كل زمان ومكان : الظالمون والمعتدون ...
 يجدون منه كل شدة تردعهم وتؤجرهم وتوقفهم عند حدودهم .
 والمؤمنون والمصلحون يجدون منه كل تكريم وإحسان وإحترام
 وقول طيب .

وقوله : « ثم أتبع سبباً » بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس .
 أى : وبعد أن بلغ مغرب الشمس ، وبال مقصده ، كر راجعاً من جهة
 غروب الشمس إلى جهة شروقها .

• حتى إذا بلغ مطلع الشمس ، أى : حتى إذا كر راجعا وبلغ مفتهى الأرض المعمورة في زمنه من جهة المشرق .

• وجدها ، أى الشمس ، تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ، أى : لم نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البلاء أو اللباس ، فهم قوم عراة يسكنون الأسراب والكهوف في نهاية المعمورة من جهة المشرق .

وقوله : • وكذلك ، حبر مبتدأ محذوف ، أى : أمر ذى القرنين كذلك من حيث إنه آتاه الله من كل شيء سببا ، فبلغ ملك مشارق الأرض ومغاربها .

وقوله • وقد أحطنا بما لديه خبرا . بيان لشمول علم الله - تعالى - بأحوال ذى القرنين الظاهرة والباطنة ولأحوال غيره .

أى : كذلك كن شأن ذى القرنين . وقد أحطنا لإحاطة تامة وعلينا علما لا يعزب عنه شيء ، بما كان لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات . . . وغير ذلك من أسباب الملك والسلطان .

وقوله - سبحانه - : • ثم اتبع سببا ، بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها ،

أى : ثم بعد أن بلغ مغرب الشمس ومغربها . . . سار في طريق ثالث معترض بين المشرق والمغرب ، أخذ فيه • حتى إذا بلغ ، في مسيره ذلك • بين السدين ، أى : الجبلين ، وسمى الجبل سدا ، لأنه سد بجا من الأرض .

قالوا : والسدان هما جبلان من جهة أرمينية وأذربيجان ، وقيل هما في نهاية أرض الترك مما يلي المشرق :

• وجد من دونهما ، أى : من دون السدين من ورائهما • قوما ، أى : أمة من الناس لغتهم لا تكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس ، ولذا قال - سبحانه - •

د لا يكادون يفقهون قولا ، أى : لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون أوبقرون ما يقوله الناس لهم ، لمرابة لغتهم وقلة فطنتهم ، ولا يعرف الناس - أيضا - ما يقوله هؤلاء القوم لهم ، لشدة عجمتهم .
 د قالوا ، أى : هؤلاء القوم لذى القرنين : د ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، .

و يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، قيل : مأخوذان من الأوجه وهى الاختلاط أو شدة الحر : وقيل : من الأوج وهو سرعة الجرى .
 واختلاف فى نسبهم ، فقيل : هم من يافث بن نوح والترك منهم . وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الديلم

أى : هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا قالوا لذى القرنين ، بعد أن أن توسموا فيه القوة والصلاح . . ياذا القرنين إن قبيلة يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض بشئ أنواع الفساد والنهب والسلب .

وفى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش - رضى الله عنها - قالت : استيقظ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر - قد أقرب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحاق - ببرأصابه - قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثرت الحبث .

وقوله - تعالى - د فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذى القرنين من عروض تدل على نفهم فيه وحسن أدبهم معه ، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أهم يفرضون الأمر إليه .

والخرج : اسم لما يخرج الإنسان من ماله لغيره . وقرأ حمزة والكسائى خراجا دهما بمعنى واحد ، وقيل الخرجة : الجزية . والخراجه : اسم لما يخرج عن الأرض

أى : فهل نجعل لك مقعداً كبيراً من أموالنا على سبيل الأجر ، لكي
تقيم بيننا وبين قبيلة بأجوج وما أجوج سداً بينهم من الوصول إلينا . ويحول
بيننا وبينهم ؟

وهنا يرد عليهم ذو القرنين - كما حكي القرآن عنه بما يدل على قوه إيمانه
وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل . فيقول : قال ما مكنتي فيه -
ربي خير

أى : قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً : إن
ما بسطه الله - تعالى - لي من الرزق والمال والقوة . خير من خروجكم
وما لكم الذي تريدون أن نجعلوه لي في إقامة السد بينكم وبين بأجوج
وما جوج ، فوفروا عليكم أموالكم ، وقفوا إلى جانبي ، فأعينوني ، بسواعدكم
وبآلات البناء ، بقوة ، أى : اكل ما أتقوى به على المقصود وهو بناء السد ،
لكي أجعل بينكم ، وبين بأجوج وما جوج ردماء .

أى : حاجزاً حصيناً ، وجداراً متيناً ، يحول بينكم وبينهم .

والردم : الشيء الذي يوضع بعضه فوق بعض حتى يتصل ويتلاصق .
يقال : ثوب مردم ، أى : فيه رفاع فوق رفاع . وسحاب مردم ، أى :
متكاثف بعضه فوق بعض . ويقال : ردمت الجفرة ، إذا وضعت فيها من
الحجارة والتراب وغيرهما ما يسويها بالأرض .

قال ابن عباس : الردم أشد الحجاب .

وجملة : أجعل بينكم وبينهم ردماء ، جواب الأمر في قوله : فأعينوني
بقوة . . .

ثم شرع في تنفيذ ما راموه منه من عون فقال لهم : آتوني زبر
الحديد . . .

والزبر - كالأغرف - جمع زبره - كفرقة - وهي القطعة الكبيرة من الحديد

وأصل الزبر . الاجتماع ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله .
ويقال : زبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفة .

أى : أحضروا لى الكثير من قطع الحديد الكبيرة ، فأحضروا له ما أراد .
حتى إذا ساوى بين الصدفين ، أى جانبي الجبلين . وسمى كل واحد من
الجانبيين صدفا . لكونه مصادفا ومقابلا وعازيا للآخر ، مأخوذه من قولهم
صدفت الرجل : أى : قابلته ولاقيته ، ولذا يقال للمفرد صدف حتى
يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايقة كالشفع والزوج .

وقوله : قال انفخوا ، أى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد
الموضوع بين الصدفين .

وقوله : حتى إذا جعله نارا ، أى : حتى إذا صارت قطع الحديد
الكبيرة كالنار فى إحمرارها وشدة توهجها . قال أنونى أفرغ عليه قطرا ،
أى : نحاسا أو رصاصا مذابا ، وسمى بذلك لأنه إذا أذيب صار يقطر كما
يقطر الماء .

أى : قال لهم أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فلما أحضروها له ، أخذ
يبنى شيئا فشيئا حتى ساوى بين جانبي الجبلين بقطع الحديد ، قال لهم :
أوقدوا النار وانفخوا فيها بالنيران وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد
وتليينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى صارت تلك القطع تشبه النار فى حرارتها
وهيئتها ، قال أحضروا لى نحاسا مذابا ، لىكى أفرغه على تلك القطع من
الحديد لتزداد صلابه ومتانة وقوة .

وبذلك يكون ذو القرنين قد لبى دعوة أولئك القوم فى بناء السد . وبناءه
لهم بطريقة محكمة سليمة ، إلهتدى بها العقلاء فى تقوية الحديد والمباني فى العصر
الحديث .

وكان الداعى له لهذا العمل الضخم ، الحيلولة بين هؤلاء القوم ، وبين
يا جوج وما جوج الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون

واقـد أخـبر القرآن الكـريم بأن ذا القرنين بهـذا العمل جعل يأجوج
ومأجوج يقفون عـازين أمام هذا السـد الضخم المحـكم فقـال : د فـا اسـطاءوا
أن يظـهروه ، وما اسـطاءوا له نقـبا .

أى : فـا اسـطاء عـوم يأجوج ومأجوج أن يـرتفعوا عـلى ظـهر السـد ،
أو يـرقوا فـوقه لـملاسته وارتفاعه ، وما اسـطاءوا - أيصاً - أن يـحدثوا فـيه
نقـبا أو خـرقا لـصلابته ومـنابته ومـخائنه .

ووقف ذو القرنين أمام هذا العمل العظيم ، مظهرا الشكر لله - تعالى - ،
والعجز أمام قدرته - عز وجل - شأن الحكام الصادقين في إيمانهم ، الشاكرين
لخالقهم توفيقه لإبـاهم لـسـكل خـير ...

وقف ليقول بكل تواضع وخضوع لخالقه ... : وهذا رحمة من ربى .
أى : هذا الذى فعلته من بناء السـد وغيره ، أنـر من آثار رحمة ربى التى
وسعت كل شـئ .

د فإذا جاء وعد ربى ، الذى حدده لفناء هذه الدنيا ونهايتها ، أو الذى
حدده لخر وجهم منه د جعله ذكاء ، أى : جعل هذا السـد أرضا مستوية ، وصـيره
مد كوكا أى : بمساواة الأرض . ومنه قولهم : ناقة ذكاء أى : لاسنام لها .

د وكان وعد ربى حقا ، أى : و كان كل ما وعد الله - تعالى - به عباده من
ثواب وعقاب وغيرهما ، وعدا حقا لا يتخلف ولا يتبدل ، كما قال - سبحانه - :
د وعد الله لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وبذلك نرى فى قصة ذى القرنين ما نرى من الذروس والعبير والعظـات ،
التي من أبرزها . أن التمكين فى الأرض نعمة يهبها الله لمن يشاء من عباده .
وأن السير فى الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل من صفات المؤمنين
الصادقين ، وأن الحاكم العادل من صفاته : ردع الظالمين عن ظلمهم ،

والإحسان إلى المستقيمين المقسطين ، والعمل على ما يجعلهم يزدادون استقامة
وفضلاً ، وأن من معالم الخلق الكريم ، أن يعين الإنسان المحتاج إلى عونه ،
وأن يقدم له ما يصونه عن الوقوع تحت وطأة الظالمين المفسدين ، وأن من
الأفضل أن يحتسب ذلك عند الله - تعالى - . . . وأن لا يطلب من المحتاج إلى
عونه أكثر من طاقته . . .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين الصادقين : أنهم ينسبون كل فضل إلى
الله - تعالى - وإلى قدرته النافذة ، وأنهم يزدادون شكراً وحمداً له - تعالى -
كلما زادهم من فضله ، وما أجل وأحكم أن تختتم قصة ذى القرنين بقوله
- تعالى - : « قال هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله ذكراً وكان
وعد ربى حقاً » .

• • •

ثم نسوق السورة الكريمة بعد قصة ذى القرنين آيات تذكر الناس
بأحوال يوم القيامة ، لعلمهم يتوبون ويتذكرون . . .

استمع إلى السورة الكريمة وهي تصور ذلك فتقول :

« وَتَرَكْنَاهُمْ يَوْمَئِذٍ يُوجُّ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جُمُعًا (٩٩) وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرَى وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
صَمًّا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ
أَوْلِيَاءَ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) » .

وقوله : « وتركنا » ، بمعنى جعلنا وصيرنا ، والضمير المضاف في قوله

(بعضهم) يعود إلى يأجوج ومأجوج . والمراد (بيومئذ) : يوم تمام بناء السد الذي بناه ذو القرنين .

وقوله - سبحانه - (موج) من الموج بمعنى الاضطراب والاختلاط يقال : ما ج البحر إذا اضطرب موجه وهاج واختلط . ويقال : ما ج القوم إذا اختلط بعضهم ببعض وتزاحوا حاربين فرعين .

والمعنى وجعلنا وصيرنا بمقتضى حكمتنا وإرادتنا وقدرتنا ، قبائل يأجوج ومأجوج يموج بعضهم في بعض . أى : تزاحون ويضطربون من شدة الحيرة لأنهم بعد بناء السد ، صاروا لا يجدون مكانا ينفذون منه إلى ما يريدون النفاذ إليه ، فهم خلفه في اضطراب وهرج .

ويجوز أن يكون المراد بيومئذ : يوم يحىء الوعد بخروجهم وإنشاءهم في الأرض ، وهذا الوعد قد صرحت به الآية السابقة في قوله - تعالى - (فإذا جاء وعد ربهم جعله دكا . وكان وعد ربى حقا) .

فيكون المعنى : وتركنا قبائل يأجوج ومأجوج ، يوم جاء وعد الله بعمل السد المذكور كما ومتساويا مع الأرض ، يموج بعضهم في بعض ، بعد أن خرجوا منتشرين في الأرض ، وقد تزاحوا وتكاثروا واختلط بعضهم ببعض .

قال الفخر الرازى : أعلم أن الضمير في قوله (بعضهم) يعود إلى يأجوج ومأجوج . وقوله : (يومئذ) فيه وجوه : الأول : أن يوم السد ما ج بعضهم في بعض خلفه لما منعوا من الخروج . الثانى : أنه عند الخروج يموج بعضهم في بعض . قيل : لهم حرب بخرجون من وراء السد يخرجون مزدحمين في البلاد الثالث : أن المراد من يومئذ (يومئذ) يوم القيامة .

وكل ذلك محتمل ، إلا أن الأقرب أن المراد به : الوقت الذى جعل الله فيه السد دكا فتمده ما ج بعضهم ونفخ في الصور ، وصار ذلك من

آيات القيامة ، (١) .

وقال القرطبي : قوله - تعالى - : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ،
الضمير في « تركنا » ، الله - تعالى - أي : « وتركنا الجن والإنس يوم القيامة
يموج بعضهم في بعض » .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج ، يومئذ ، أي : يوم كمال السد يموج
بعضهم في بعض . وإستعارة الموحطيم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم
في بعض ...

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم لإفتتاح السد يموجون في الدنيا
مختلفين لكثرتهم . فهذه أقوال ثلاثة : أظهرها أوسطها وأبعدا آخرها .
وحسن الأول ، لأنه تقدم ذكر القيامة في تأويل قوله - تعالى - : « فإذا جاء
وعد ربى » ، (٢) .

وقوله - سبحانه - ، « ونفخ في الصور لجمعناهم » ، بيان لعلامة من
علامات قيام الساعة .

والنفخ لغة : إخراج النفس من الفم لإحداث صوت معين . والصور :
القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل - عليه السلام - نفخه الصمق والموت ، ونفخة
البعث والنشور كما قال - تعالى - : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات
ومن في الأرض إلا من شاء الله » ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، (٣) .
والمعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يموج بعضهم في بعض . وأمرنا
إسرافيل بالنفخ في الصور ، فجمعناهم وجمع الخلائق جمعاً تاماً ، دون أن نترك
أحدًا من الخلائق بدون إعادة إلى الحياة ، بل الكل يجرعون لبوم عظيم هو
يوم البعث والحساب .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢١ ص ١٧٢ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٦٥ .

(٣) سورة الزمر الآية ٦٨ .

والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التي يقوم الناس بعدها من قبورهم للحساب ، كما أشارت إلى ذلك آية سورة الزمر السابقة .

وفي التعبير بقوله : « جمعتهم جميعاً » . إشعار بأن هذا الجمع تام كامل ، لأن كلمة « جميعاً » مؤكدة لجملة جمعناهم . أي : جمعناهم جميعاً تاماً كاملاً لا يشذ عنه أحد ، ولا يفلت منه مخلوق ، كما قال - سبحانه - : « قل إن الأولين والآخرين لجموع هون . إلى ميقات يوم معلوم . »

هذا ، وهنا مسألة تسكلم عنها العلماء ، وهي وقت خروج يأجوج ومأجوج . ففهم من يرى أنه لا مانع من أن يكونوا قد خرجوا ، بدلبل ما جاء في الحديث الصحيح من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بين أصابعه .

ولأن الآيات السكريمة تقول : فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ... ووعد الله لا مانع من أن يكون قد أتى .

قال الشيخ القاسمي : والغالب أن المراد بخروجهم هذا خروج المفلول التتار . وهم من نسل يأجوج ومأجوج - وهو الفوز الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجري . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك في الأرض من فساد ... (١) .

وقال الشيخ المراغي عند تفسير قوله - تعالى - : « وكان وعد ربي حقاً ، وقد جاء وعده - تعالى - بخروج جنكيز خان وسلالة فعاثوا في الأرض فساداً ... وأزالوا معالم الخلافة من بغداد ... » (٢) .

وقال صاحب الظلال : « وبعد ، فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟ »

(١) تفسير القاسمي ج ١١ ص ١٦١٤ .

(٢) تفسير المراغي ج ١٦ ص ٢٠ .

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن ، وفي بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين : وإذا جاء وعد ربى جعله دكاه وكان وعد ربى حقا ، .

وهذا النص لا يحدد زمانا ووعد الله بمعنى وعده بذلك السد ، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وانساحوا في الأرض . ودمروا الممالك تدميرا .

وفي موضع آخر من سورة الأنبياء : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق ... ، .

وهذا النص - أيضا - لا يحدد زمانا معيننا لخر وجهم ، فاقتراب الوعد الحق ، بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد جاء في القرآن : اقتربت الساعة وانشق القمر ، والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون . وإذا فُتِحَ الجائز أن يكون السد قد فتح ما بين : اقتربت الساعة ، ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق ، هي انسياح يأجوج ومأجوج ... وكل ما نقوله ترجيح لا يقين (١) .

هذه بعض حجج القائلين بأنه لا مانع من أن يكون يأجوج ومأجوج قد خرجوا ...

وهناك فريق آخر من العلماء ، يرون أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد ، وأن خرجهم إنما يكون قرب قيام الساعة .

ومن العلماء الذين أيدوا ذلك صاحب أضواء البيان ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه :

(١) في ظلال القرطبي ج ١٦ ص ٢٢٩٣ .

أعلم أن هذه الآية : « فإذا جاء وعد ربى جعله دكا . . . » ، وآية الأنبياء : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج . . . » قد دللتا في الجملة على أن السد الذي بناه ذوالقرنين ، دون يأجوج ومأجوج ، إنما يجعله الله دكا عند مجيء الوقت الموعود بذلك فيه . وقد دللتا على أنه بقرب يوم القيامة . . . لأن المراد بيومئذ في قوله « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » ، أنه يوم مجيء وعد ربى بخروجهم وإنتشارهم في الأرض .

وآية الأنبياء تدل في الجملة على ما ذكرنا هنا . وذلك يدل على بطلان قول من قال : إنهم « روسيا » وأن السد فتح من زمن طويل .
والإفتراء الذي جاء في قوله - تعالى - « إفتربت الساعة . . » ، وفي الحديث « ويل للعرب من شر قد إفترب . . . » لا يستلزم إفتراءه من ذلك السد ، بل يصح إفتراءه مع مهلة .

وهذه الآيات لا يتم الاستدلال بها على أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد - إلا بضميمة الأحاديث النبوية لها .

ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه في ذلك ، وفيه : خروج الدجال وبعث عيسى ، وقتله الدجال . . . ثم يبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون .

فينحاز عيسى ومن معه من المؤمنين إلى الطور . . . ثم يرسل الله على يأجوج ومأجوج الغف في رقابهم فيموتوا

وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن الله يوحى إلى عيسى ابن مريم بخروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال فن يدعى أنهم « روسيا » وأن السد قد إندك منذ زمان ، فهو مخالف لما أخبر به النبي - صلى الله عليه وسلم - مخالفة صريحة لا وجه لها . ولا شك أن كل خبر يخالف الصادق المصدق - صلى الله عليه وسلم - فهو باطل ، لأن نقبض الخبر الصادق - كاذب ضرورة كما هو معلوم .

ولم يثبت في كتاب الله ولا في سنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - شيء يعارض هذا الحديث الذي رأيت صحة سنده ، ووضوح دلالاته على المقصود ... (١) .

والذي يبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب أضواء البيان ، أقرب إلى الحق والصواب للأسباب التي ذكرها ، ولقرينة تذييل الآيات التي تحدثت عن يأجوج ومأجوج عن أهوال يوم القيامة .

ففي سورة الكهف يقول الله - تعالى - في أعقاب الحديث عنهم ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، ونفخ في الصور فجهنمناهم جمعا .

وفي سورة الأنبياء يقول الله - تعالى - : د حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون وإقرب الوعد الحق

وفضلا عن كل ذلك فإن الحديث الذي رواه الإمام مسلم عنهم ، صريح في أن خروجهم سيكون من علامات الساعة ، والله - تعالى - أعلم .

ثم بين سبحانه - ما أعدّه للكافرين من عذاب يوم القيامة فقال : د وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا . .

وقوله : د وعرضنا ... أي : أظهرنا وأبرزنا يقال : عرض القائد جنده إذا أظهرهم ليشاهدهم الناس .

أي : جمعنا الخلائق يوم النبعث والشور جمعنا تاما كاملا . وأبرزنا وأظهرنا جهنم في هذا اليوم للكافرين لمبرازها اتلا فظيما ، حيث يرونها وبشاهدونها بدون لبس أو خفاء ، فيصيبهم ما يصيبهم من رعب وفزع عند مشاهدتها .

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ١٨١ وما بعدها لشيخ محمد الأمين الشنيطي .

وتخصيص العرض بهم ، مع أن غيرهم - أيضا - يراها ، لأنها ما عرضت
لأهل من أجلهم ، ومن أجل أنظارهم من فسقوا عن أمر ربهم .

ويرى بعضهم أن اللام في « للكافرين » بمعنى على ، لأن العرض يتعدى
بها قال - تعالى - : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ... » وقال
- سبحانه - : « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ... »

ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على إستحقاقهم دخول النار فقال :
الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى .

أى : أبرز جهنم فى هذا اليوم العصيب للكافرين الذين كانت أعينهم فى
الدنيا فى « غطاء » كثيف وغشاوة غليظة ، « عن ذكرى » أى : عن الارتفاع
بالآيات التى تذكرهم بالحق ، وتهدىهم إلى الرشاد ، بسبب استحواذ الشيطان
عليهم .

وفى التعبير به وله : « غطاء » إشعار بأن الحائل والسماتر الذى حجب
أعينهم عن الابصار ، كان حائلا شديدا ، إذ الغطاء هو الذى يغطى الشيء
ويستره من جميع جوانبه .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم ، أو ما يشمله ويشمل كل ما فى الكون
من آيات يؤدى للتفكر فيها إلى الايمان بالله - تعالى - .

وقوله : « وكانوا لا يستطيعون سمعا » صفة أخرى من صفاتهم الذميمة .
أى : « وكانوا فى الدنيا - أيضا - لا يستطيعون سمعا للحق أو الهدى » بسبب
إصرارهم على الباطل ، وإيغالهم فى الضلال والعناد ، بخلاف الأصم فإنه قد
يستطيع السماع إذا صيحه به .

قال الألوسى : فالجلمة الكريمة فى اسماعهم على أتم وجه ، ولذا عدل عن :
« وكانوا صما مع أنه أخصر » لأن المراد أنهم مع ذلك كفأ قدى السمع الكلية
وهو مبالغته فى تصوير إعرضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ما ينفعهم بعد تصوير

تمامهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار ... ، (١) .

ثم يعقب - سبحانه - على هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالتهكم اللاذع لهم فيقول : « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ... ، فالإستفهام : الإلكار والتوبيخ . والحسبان : بمعنى الظن .

والمراد بعبادى هنا : الملائكة وعيى وعزير ومن يشبههم من عباد الله الصالحين ، إذ مثل هذه الإضافة تكون غالبا للتشريف والتكريم . وفى الآية الكريمة حذف دل عليه المقام .

والتقدير : أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى الصالحين آلهة يستنصرون بهم من دونى ، أو يعبدونهم من دونى ، ثم لا أعذبهم - أى هؤلاء الكافرين بى - على هذا الإلتخاذ الشديد الشناعة ؟

إن هؤلاء الذين يحسبون ذلك ، قد ضلوا ضلالا بعيدا ، فإنى لا بد أن أعذبهم على كفرهم وشرهم .

أو التقدير : أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، لىكى يشفعوا لهم يوم القيامة ؟ كلا ان يشفعوا لهم بل سيتبرأون منهم ، كما قال - سبحانه - « كلا سيكفرون بعبادتهم ويكنون عليهم ضدا ، .

ثم بين - سبحانه - ضلال هذا الحسبان الباطل فقال : « إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ، .

والنزل : ما يقدم للضيف عند نزوله ، والقادم عند قدومه ، على سبيل التكريم والترحيب .

أى : إنا أعتدنا جهنم هؤلاء الكافرين بى ، المتخذين عبادى من دونى أولياء ، لتكون معدة لهم عند قدومهم تكميلا لهم .

فالجلة الكريمة مسوقة على سبيل التهكم بهم ، والنقريع لهم ، لأن جهنم ليست نزل إكرام للقادم عليها ، بل هي عذاب مهين له .

وشبيه بهذه الجلة قوله - تعالى - : « فنبئهم بعذاب أليم ، وقوله : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه » .

ويجوز أن يكون النزول بمعنى المنزل ، أى : إنا هيئنا جهنم للكافرين لتكون مكانا وحيدا لنزولهم فيها ، إذ لبس لهم منزل سواها .

ثم يأمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - فى أواخر السورة الكريمة ، بأن يبين للناس من هم الأخسرون أعمالا ، ومن هم الأسوأ عاقبة فيقول :

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا (١٠٦) » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين الذين أعجبهم أعمالهم وتصرفاتهم الباطلة .

قل لهم : ألا تريدون أن أخبركم خبرا ماما ، كله الصدق والحق ، وأعرفكم عن طريقه من هم الأخسرون أعمالا فى الدنيا والآخرة ؟
وجاء هذا الإخبار فى صورة الاستفهام لزيادة التهكم بهم ، وللفت أنظارهم إلى ما سيلقى عليهم .

والأخسرون : جمع أخسر ، صيغة تفضيل من الخسران ، وأصله نقص مال التاجر .

والمراد به هنا : خسران أعمالهم وضياها بسبب إصرارهم على كفرهم .

وجمع الأعمال ، للإشعار بتنوعها ، وشمول الخسران لجميع أنواعها .
وقوله - سبحانه - : الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا . وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، .
جواب عن السؤال الذي اشتملت عليه الآية السابقة وهي : دقل هل أنبئكم

فكانه قيل : نبئنا عن هؤلاء الأخسرين أعمالا ؟

فكان الجواب : هم الذين ضل سعيهم ، أى بطل وضاع بالكلية سعيهم وعملوا في هذه الحياة الدنيا بسبب إصرارهم على كفرهم وشركهم ، فالجملة السكينة خير لمبتدأ محذوف .

وقوله : وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أى : والحال أنهم يظنون أنهم يقدمون الأعمال الحسنة التى تنفعهم .

فالجملة السكينة حال من فاعل ضل ، أى : ضل وبطل سعيهم ، والحال أنهم يظنون العكس . كما قال - تعالى - : : أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا

وهذا هو الجهل المركب بعينه ، لأن الذى يعمل سوء . ويعلم أنه سوء قد ترجى استقامته . أما الذى يعمل سوء . ويظنه عملا حسنا فهذا هو الضلال المبين .

والتحقيق أن المراد بالأخسرين أعمالا هنا : ما يشمل المشركين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن يعتقدون أن كفرهم وضلالهم صواب وحق .
وقوله - سبحانه - : أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فخبطت أعمالهم

كلام مستأنف لزيادة التعريف هؤلاء الأخسرين أعمالا ، ولبيان سوء مصيرهم .

أى : أولئك الذين كفروا بآيات ربهم الدالة على وحدانيته وقدرته وكفروا بالبعث والحشر والحساب وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، فكانت نتيجة هذا الكفر أن حبطت أعمالهم ، أى : فسدت وبطلت .

وأصل الحبوط : افتاخ بطن الدابة بسبب امتلائها بالغذاء الفاسد الذى يؤدى إلى هلاكها .

والتعبير بالحبوط هنا فى أعلى درجات البلاغة، لأن هؤلاء الكافرين ملأوا صحائف أعمالهم بالأقوال والأفعال النسيجة التى ظنوها حسنة، فترتب على ذلك هلاكهم وسوء مصيرهم .

وقوله : فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ، تصريح بهوانهم والاستخفاف بهم ، واحتقار شأنهم .

أى : فلا نلتفت إليهم يوم القيامة، ولا نعبأهم احتقاراً لهم، بل نذرهم ولا نقيم لهم ولا لأعمالهم وزناً ، لأنهم لا توجد لهم أعمال صالحة توضع فى ميزانهم، كما قال تعالى : - وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً، وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال : اقرؤا إن شئتم قوله تعالى - : ، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان سوء ما لهم فقال : (ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا . واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) .

فاسم الإشارة (ذلك) مشاربه إلى عقابهم السابق المتمثل فى حبوط أعمالهم واحتقار شأنهم . وهو خبر لمبتدأ محذوف . أى : لمصرم وشأنهم ذلك الذى بيناه سابقاً -

وقوله : (جزاؤهم جهنم) جملة مفسرة لاسم الإشارة لا محل لها من الإعراب أو هو جملة مستقلة برأسها مكونة من مبتدأ وخبر .

وقوله . (بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) بيان الآيات التي جعلها الله وقودا للجهنم .

أى : أن مصيرهم إلى جهنم بسبب كفرهم بكل ما يجب الإيمان به ، وبسبب اتخاذهم آيات الله الدالة على وحدانيته ، وبسبب اتخاذهم رسله الذين أرسلهم لهذا ينهم ، محل استهزاء وسخرية .

فهم لم يكتفوا بالكفر بل أضافوا إلى ذلك السخرية بآيات الله - تعالى - والاستهزاء بالرسل الكرام - عليهما الصلاة والسلام - .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالوعد الحسن للمؤمنين فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حَوْلًا (١٠٨) » .

وجنات الفردوس : هى أفضل الجنة وأعلاها . ولفظ الفردوس : لفظ عربى ويجمع على فراديس ، ومنه قولهم صدر مفردس ، أى : واسع . قال الألوسى ما ملخصه : عر جاهد أن الفردوس هو البستان الرومية ، وعن عكرمة أن الفردوس هو الجنة بالحبيشية . .

ونص الفراء على أن هذا اللفظ عربى ومعناه البستان الذى فيه كرم . . . وقال المبرد : هى - أى كلمة الفردوس - فيما سمعت من العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إذا سألتكم الله - تعالى - فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن . ومنه تفجر أنهار الجنة . . . (١)

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا
الأعمال الصالحات بإخلاص ولتتابع لما جاء به الصادق المصدوق - صلى الله
عليه وسلم - ، كانت لهم عند الله - تعالى - جنات الفردوس ، التي هي أفضل
الجنات وأرفعها درجة ، نزلا ، أي : هدية تقدم لهم منه يوم القيامة ، ومكانا
ينزلون به تكريما ونشريفا لهم .

« خالدين فيها ، خلودا أبديا ، حالة كونهم » لا يبغون عنها حولا ، أي :
لا يطلبون تحولا أو إنتقالا منها إلى مكان آخر ، لتكونها أطيب المنازل
وأعلما .

وفي قوله - تعالى - : « لا يبغون عنها حولا » ، لفظة دقيقة عميقة للإجابة
على ما يعترض النفس البشرية من حب الانتقال والتحول من مكان إلى مكان ،
ومن حال إلى حال ...

فمكانه - سبحانه - يقول : إن ما حصلت عليه النفوس في الدنيا من حب
للتحول والانتقل ...

قد زال وانتهى بحلولها في الآخرة في الجنة ، فالنفس الإنسانية عندما
تستقر في الجنة - ولا سيما جنة الفردوس - لا تريد تحولا أو إنتقالا عنها ،
لأنها المكان الذي لا تشاق النفوس إلى سواه ، لأنها تجد فيه ما تشتهي
وما تبتغيه نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا جميعا جنات الفردوس .

وكما افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته ، ختمها - أيضا -
بالثناء والحمد ، فقد أثبت - عز وجل - أن عمله شامل لكل شيء ، وأن قدرته
نافذة على كل شيء ، وأنه - تعالى - هم المستحق للعبادة والطاعة ، فقال :

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ
كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِثًّا بِمِثْلِهِ مِدَادًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
(١١) - سورة الكهف)

يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ وَاحِدٌ ، فَنَ كَأَن يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١) .

والمراد بالبحر : جهنمه ، والمداد في الأصل : اسم لكل ما يمد به الشيء .
واحتص في العرف لما يمد به الدواة من الحبر .

والمراد بكلمات ربي : علمه وحكمته وكلهاته التي يصرف بها هذا الكون .
وقوله : (لنفد البحر) : أي لفنى وفرغ وانتهى . يقال : نفد الشيء
ينفد - نفاداً ، إذا فنى وذهب ، ومنه قولهم : أنفد فلان الشيء واستنفده ؛
أي : أفناه .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للنفاس : لو كان ماء البحر مداداً
للأقلام التي تكتب بها كلمات ربي ومعلوماته وأحكامه .. لنفد ماء البحر ولم
يق منه شيء - مع كثرتة وغزارته - قبل أن تنفد كلمات ربي ، وذلك لأن
ماء البحر ينقص وينتهى . أما كلمات الله - تعالى - فلا تنقص ولا تنتهى .

وقوله - سبحانه - : (ولو جئنا بمثله مدداً) زيادة في المبالغة وفي التأكيد
لما قبله من شمول علم الله - تعالى - لكل شيء ، وعدم تنأهيه .

أي : وبعد نفاد ماء البحر السابق ، لو جئنا بماء بحر آخر مثله في الغزارة
والغزارة ، وكتبنا به كلمات الله - تعالى - لنفد - أيضاً - ماء البحر الثاني دون
أن تنفد كلمات ربي .

فالآية الكريمة تصور شمول علم الله - تعالى - لكل شيء ، وعدم تنأهيه
كلهاته ، تصويراً بديعاً ، يقرب إلى العقل البشري بصورة محسوسة كمال علم الله
- تعالى - وعدم تنأهيه ...

قال الألوسي : وقوله : (ولو جئنا بمثله مدداً) : هذا كلام من جهته
- تعالى شأنه - غير داخل في الكلام الملقن ، جرى به لتحقيق مضمونه ،
وتصديق مدلوله على أنم وجهه . والواو عاطف الجملة على نظيرتها المستأنفة
المقابلة لها المحذوفة لدلالة ما ذكر عليها دلالة واضحة :

أى : لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته - تعالى - لو لم تجيء بمعلم مدداً ، ولو
جئنا بمثله مدداً - لنفد أيضاً - (١) .

وقال بعض العلماء : وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ، لأن هذه
الاشياء مخلوقة ، وجميع المخلوقات منقضية منتهية ، وأما كلام الله - تعالى -
فهو من جملة صفاته ، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى ، فأى سعة
وعظمة تصورها القلوب ، فآله - تعالى - فوق ذلك ، وهكذا سائر صفات الله
- سبحانه - كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته (٢) .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : (ولو أن ما فى البحر من شجرة أقلام ،
والبحر يمد من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم) (٣)
ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بأمر آخر منه - تعالى - لنبهه - صلى الله
عليه وسلم - فقال : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما ألهكم إله واحد) .
أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، مبيناً لهم حقيقة أمرى ، بعد
أن بينت لهم عدم تنهاى كلمات ربك .

قل لهم : إنما أنا بشر مثلكم ، أوجدنى الله - تعالى - بقدرته من أب وأم
كما أوجدكم . وينتهى نسي ونسبكم إلى آدم الذى خلقه الله - تعالى - من تراب .
ولكن الله - عز وجل - اختصنى بوحيه وبرسالته - وهو أعلم حيث يعمل
رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم ورازقكم ومميتكم ، هو
إله واحد لا شريك له لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته .
فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن تسجدوا لما أمركم به ،
ولما نهاكم عنه . فإنى مبلغ عنه ما كلفنى به .

(١) تفسير الآلوسى - ١٦ ص ٥٢

(٢) تفسير الكرمى الرحمن فى تفسير كلام القرآن . ج ٥ ص ٤ للشيوخ عبد الرحمن

ابن ناصر السفدى طبعة مؤسسة مكة للطباعة والإعلام

(٣) سورة لقمان الآية ٢٧

فآية الكريمة وإن كانت تثبت للرسول - صلى الله عليه وسلم - صفة البشرية وتنفي عنه أن يكون ملكاً أو غير بشر . . إلا أنها تثبت له - أيضاً - أن الله - تعالى - قد فضله على غيره من البشر بالوحي إليه ، وبمكليفه بتبليغ ما أمره الله - تعالى - بتبليغه للعالمين . كما قال - سبحانه - (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكما قال - عز وجل - : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب : ولا أقول لكم إني ملك ، إن أنبئكم إلا ما يوحي إلي) (١) . ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الجملة الجامعة لكل خير فقال : **دفن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، .** أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : إنما أنا واحد منكم في البشرية إلا أن الله - تعالى - قد خصني واصطفاني عليكم برسالاته ووحيه ، وأمرني أن أبلغكم أن إلهكم إله واحد . فن كان منكم يرجو لقاء الله - تعالى - ويأمل في ثوابه وروية وجهه الكريم ، والظفر بحنته ورضاه ، فليعمل عملاً صالحاً ، بأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله - تعالى - ومطابقاً لما جئت به من عنده - عز وجل - . ولا يشرك بعبادة ربه أحداً من خلقه ، سواء أكان هذا المخلوق نبياً أم ملكاً أم غير ذلك من خلقه - تعالى - .

وقد حمل بعض العلماء الشرك هنا على الرياء في العمل ، فيكون المعنى : **دفن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يرائي الناس في عمله ، لأن العمل الذي يصاحبه الرياء هو نوع من أنواع الشرك بالله تعالى ، .**

والذي يبدو لنا أن حمل الشرك هنا على ظاهره أولى ، بحيث يشمل الإشراف الجلى لعبادة غير الله - تعالى - والإشراف الخفي كالرياء وما يشبهه . أى : **ولا يعبد ربه رياء وسمعة ، ولا يصرف شيئاً من حقوق خالقه لأحد من خلقه ، لأنه - سبحانه - يقول : (إن الله لا يغفر أن يشرك**

و بقدر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن بشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً (١) .
وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لفعله - تعالى -
« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .
ومن هذه الأحاديث ما رواه ابن أبي حاتم ، من حديث معمر ، عن
عبد الكريم الجوزي ، عن طاووس قال : قال رجل يا رسول الله ، إني أفتق
المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - شيئاً حتى نزلت هذه الآية : « من كان يرجو لقاء ربه
فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (٢) .

أما بعد : فهذه سورة الكهف ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله - تعالى -
أن ينفعنا بالقرآن الكريم ، وأن يجعله ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وشفيعنا
يوم نلقاه . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة : مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ

١٩ من إبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوي

مفتي جمهورية مصر العربية

(١) سورة النساء الآية ٤٨ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٢٠٠ ، طبعة دار الشعب .

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الكهف »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	٣
١	الحمد لله الذى أنزل . . .	١١
٩	أم حسيت أن أصعاب . . .	٢٢
١٣	نحن نقص عليك نبأهم . . .	٣٠
١٧	وترى الشمس إذا طلعت . . .	٣٦
١٩	وكذلك يمشى ليضاءلوا . . .	٤٣
٢١	وكذلك أعتزنا عليهم . . .	٤٦
٢٢	سيعولون ثلاثة رابعهم . . .	٤٩
٢٣	ولا تقولن لشيء إني فاعل . . .	٥٢
٢٥	ولبئرا فى كهفهم ثلثة سنين . . .	٥٦
٢٧	وانزل ما أوحى إليك . . .	٦١
٣٢	واضرب لهم مثلا رجلاين . . .	٧١
٣٧	قال له صاحبه وهو يحاوره . . .	٧٦
٤٣	واحبط بشره فأصبح . . .	٨٠
٤٥	واضرب لهم مثل الجباه . . .	٨٥
٤٧	وبوم نسير الجبال وترى . . .	٨٩
٥٠	وإذا قلنا لللائكة اسجدوا . . .	٩٤
٥٤	ولقد صرفنا فى هذا القرآن . . .	١٠٢
٦٠	وإذا قال موسى لقناه . . .	١١١
٦٦	قال له موسى هل أتبعك . . .	١١٩
٧١	فانطلقا حتى إذا ركبا . . .	١٢١
٧٢	فانطلقا حتى إذا لقيا . . .	١٢٣
٧٧	فانطلقا حتى إذا أتيا أهل . . .	١٢٥
٧٩	أما السفيهة فكانت لها كين . . .	١٢٧
٨٠	وأما الغلام فكان أبواه . . .	١٢٨

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٨٢	وأما الجدار فكان لفلايين ...	١٢٩
٨٣	ويسألونك عن ذى القرنين ...	١٣٨
٩٩	وتركنا بينهم يَوْمَئِذٍ ...	١٤٨
١٠٣	قل هل ننبئكم بالأخبرين ...	١٥٧
١٠٧	إن الذين آمنوا وعملوا ...	١٦٠
١٠٩	قل لو كان البحر مدادا ...	١٦١
١١٠	قل إنا أنا بشر مثلكم ...	١٦٢